سُورَةُ الْقِيَامَةِ

حِينَ يَسْقَطُ وَهْمُ الْمَفَرِّ

تَأليف: رَدَّادُ السَّــلَامِيُّ

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

حِينَ يَسْقُطُ وَهْمُ الْمَفَرِّ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَّامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

حين تُنزَع عن الإنسان أعذاره

ليست سورة القيامة حديثًا عن يومٍ سيأتي فحسب، بل هي حديثٌ عن الإنسان قبل أن يأتي ذلك اليوم، عن هذا الكائن العجيب الذي يحمل في داخله معرفةً يخفيها، وحجّةً يحاول أن يراوغها، وضميرًا قد يسكت طويلًا لكنه لا يموت، ونفسًا ترى آثار الطريق ثم تمضي أحيانًا كأنها لا ترى، حتى إذا هبَّ عليها صوت القرآن انكشف المستور، واضطربت طبقات القلب التي ظنَّ صاحبها أنها استقرّت إلى الأبد. ومن هنا تبدو السورة، منذ اسمها، كأنها ليست مجرد إعلان عن القيامة الكبرى التي تقوم فيها الخلائق لرب العالمين، بل إيقاظٌ لقيامات صغيرة تتكرر في باطن الإنسان كلما وقف أمام الحقيقة عاريًا من التبرير، فهناك قيامةٌ حين يفيق الضمير بعد غفلة، وقيامةٌ حين تنهار أمام النفس صورةٌ مزيفة بنتها عن ذاتها، وقيامةٌ حين يكتشف المرء أن ما كان يسميه نسيانًا لم يكن إلا هروبًا، وأن ما كان يصفه بالالتباس لم يكن في كثير من الأحيان سوى رغبةٍ خفية في تأجيل الوضوح، وأن الإنسان، مهما استطاع أن يختبئ من الناس، لا يملك أن يخرج من نفسه، ولا أن يطمس في أعماقه ذلك الشاهد الذي يعرفه أكثر مما يعرفه الآخرون: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾.

إن للقرآن طرائق عجيبة في إعادة الإنسان إلى حقيقته، وسورة القيامة من أشد تلك الطرائق نفاذًا، لأنها لا تترك للمرء مسافةً آمنة يتأمل منها مشهد الآخرة كما يتأمل قصةً بعيدة، وإنما

تجذبه فجأة إلى داخل المشهد، ثم تنتقل به من مستقبل الكون إلى حاضر النفس، ومن تفتت الجسد إلى اضطراب الضمير، ومن جمع العظام إلى جمع الإنسان كله أمام علم الله، حتى يشعر القارئ أن القيامة ليست خبرًا يُتلقّى، بل حقيقةٌ تلاحقه في كل قرار، وأن الساعة التي ستقوم في آخر الزمان قد أرسلت مقدماتها منذ الآن إلى القلب: في ندمه، وفي خوفه، وفي حبّه للبقاء، وفي هلعه من الفقد، وفي سعيه المحموم وراء العاجل، وفي محاولاته التي لا تنتهي لصناعة حجابٍ نفسيٍّ بينه وبين المصير. ولذلك فإن هذه السورة لا تمنحنا رفاهية الوقوف على حافة المعنى؛ إنها تدفعنا إلى وسطه، حيث الإنسان الذي يجادل في إمكان البعث، والإنسان الذي يعاتب نفسه، والإنسان الذي يريد أن يفجر أمامه، والإنسان الذي يفر يومئذٍ من الحقيقة فلا يجد مفرًّا، والإنسان الذي تبرق عيناه حين يسقط النظام الذي استند إليه، والإنسان الذي يحب العاجلة ويذر الآخرة، والإنسان الذي تنتهي رحلته كلها في لحظة احتضار لا يستطيع عندها مالٌ ولا جاهٌ ولا رفقةٌ أن تستبقيه دقيقةً واحدة.

ولعل من أعجب أسرار السورة أن عنوانها الكبير هو القيامة، ولكن قلبها النابض هو الإنسان؛ فالسماء لا تُذكر فيها لتبهرنا باتساعها، والشمس والقمر لا يحضران لمجرد رسم مشهد كوني هائل، والعظام لا تُذكر لإثارة سؤال تشريحي عن إمكان إعادتها، وإنما تنعطف هذه المشاهد كلها لتضغط على السؤال الأخطر: ماذا يفعل الإنسان بحقيقة أنه مخلوقٌ إلى أجل، وأنه محمولٌ إلى لقاء، وأن كل لحظة من عمره تسير به، من حيث يشعر أو لا يشعر، نحو موقفٍ لا يستطيع فيه أن يستعير وجهًا غير وجهه ولا لسانًا غير لسانه ولا سيرةً غير سيرته؟ إن أزمة الإنسان ليست في قلة البراهين دائمًا، بل كثيرًا ما تكون في ثقل النتائج؛ فالاعتراف بالآخرة ليس معلومةً محايدة، وإنما انقلابٌ كامل في ميزان الحياة، لأن من أيقن أنه سيُبعث لم يعد قادرًا ـ إن كان يقينه حيًّا ـ أن ينظر إلى الظلم بوصفه صفقةً رابحة، ولا

إلى الشهوة بوصفها لحظةً منقطعة، ولا إلى الكلمة بوصفها صوتًا يتبدد، ولا إلى العمر بوصفه مساحةً بلا حساب، إذ تصبح الأشياء كلها موصولةً بخيط خفي إلى يوم تظهر فيه الخفايا، ويصبح للحظة وزنٌ أبدي، وللنية أثرٌ يتجاوز زمنها، وللخير الذي نسيه صاحبه ذاكرةٌ عند الله لا تنسى.

ولهذا تبدأ السورة بالقسم: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، وكأن بين القيامتين نسبًا عميقًا: قيامة الكون وقيامة الضمير؛ فهناك يومٌ ستُبعث فيه الأجساد من مراقدها، وهناك في داخل كل إنسان نفسٌ تستطيع ـ ما بقي فيها نور ـ أن تبعث الحقيقة من تحت ركام الأعذار. والنفس اللوامة ليست عيبًا في البناء الإنساني، بل إحدى نوافذ الرحمة فيه؛ ذلك الألم الذي يشعر به المرء بعد الزلل ليس دائمًا علامة انهيار، بل قد يكون آخر خيط يصل القلب بسلامته، فالخطر ليس أن يخطئ الإنسان ثم يتألم، وإنما أن يخطئ فلا يتحرك فيه شيء، وأن تتراكم الذنوب حتى يغدو القبح مألوفًا، وأن تتكرر الخيانة حتى تفقد النفس قدرتها على الخجل من ذاتها. وحين يقسم الله بالنفس اللوامة إلى جوار يوم القيامة، تنفتح أمامنا دلالة جليلة: إن الذي ينتظر الحساب غدًا ينبغي أن يتعلم المحاسبة اليوم، وإن أعظم ما ينقذ الإنسان من الموقف الذي لا ينفع فيه الاعتذار هو أن يمتلك قبل ذلك شجاعة الاعتراف، وأن يفتش في أعماقه بلا مجاملة، وأن لا يجعل حبّه لنفسه سببًا في خداعها، بل سببًا في تطهيرها.

وسنحاول في هذه الصفحات ألا نتعامل مع السورة بوصفها مجموعة مشاهد منفصلة؛ فهذه السورة نسيج شديد الإحكام، يبدأ بالبعث وينفذ إلى النفس، ثم يعود إلى البعث، ويقف عند تلقي الوحي، ثم يكشف مرض التعلق بالعاجلة، ثم يفتح نافذتين متقابلتين على الوجوه يوم القيامة: وجوهٌ ناضرة إلى ربها ناظرة، ووجوهٌ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة، ثم يهبط بنا

من ذلك الأفق الكوني إلى غرفة الاحتضار، إلى اللحظة التي تبلغ فيها الروح التراقي، ويبحث المحيطون عن راقٍ فلا يجدون في مقدور البشر ما يردّ الحكم، وتلتف الساق بالساق، ويساق الإنسان إلى ربه، ثم تفضح السورة تاريخ الاستكبار الذي قاد إلى تلك النهاية: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، قبل أن تختم بالسؤال الذي يكسر آخر حصون الغرور: أفيحسب الإنسان أنه يُترك سدى؟ ثم ترده إلى أصله الأول، إلى قطرةٍ لا تكاد تُرى، كي يدرك أن الذي أنشأ البداية ليس عاجزًا عن إعادة النهاية، وأن إنكار البعث ليس مشكلةً في قدرة الخالق، وإنما في تصور المخلوق.

وهذه القراءة ليست محاولةً لتجريد الآيات من معانيها التي دلّ عليها اللسان العربي وسياق السورة وهدي التفسير، ولا انتقالًا بها إلى رموزٍ باطنية لا شاهد لها، بل سنظل قريبين من ظاهر النص ومقصوده، ثم ننظر من خلال ذلك الظاهر إلى الإنسان الذي يخاطبه القرآن في كل زمان؛ لأن القرآن لا يروي للإنسان خبر مصيره كي يملأ عقله بالمعلومات، بل ليعيد ترتيب وجوده. سنقف عند اللفظة وموقعها، وعند حركة المشهد، وعند الانعطاف المفاجئ في الخطاب، وعند الأسئلة التي لا تنتظر جوابًا بقدر ما تهدم غفلة، ثم نحاول أن نستمع إلى الأثر الذي تُحدثه الآية في أعماق النفس: ماذا تصنع معرفة البعث بمقاييسنا؟ لماذا يخاف الإنسان من المستقبل الأبدي ثم يهدر حاضره في العاجلة؟ لماذا يطلب المعاذير وهو يعرف الحقيقة في داخله؟ كيف يصير الموت معلّمًا صامتًا يعيد تعريف الأشياء؟ وكيف تنقلب الحياة كلها حين نكف عن النظر إليها بوصفها دار إقامة، ونراها كما أراد الله لها أن تُرى: طريقًا له نهاية، وأمانةً لها سؤال، وفرصةً يعقبها لقاء؟

إن الإنسان الحديث، على الرغم من ضجيج المعرفة من حوله، ليس أبعد عن سؤال القيامة من الإنسان الأول، بل ربما كان أشد حاجة إلى أن يسمعه؛ لقد صار أقدر على إطالة

الحياة، لكنه لم يتعلم كيف يلغي الموت، وأقدر على حفظ الصور والرسائل والذكريات، لكنه لم يجد تقنيةً تحفظ جسدًا إذا جاء أجله، وأقدر على مراقبة العالم من شاشته، لكنه ما زال عاجزًا عن رؤية اللحظة التي ستخرج فيها روحه من جسده. يبني الإنسان مدنًا تشبه إعلانًا طويلًا عن البقاء، ويجمع الأشياء كأن الموت لم يُخلق، ويخطط لعقودٍ مقبلة كأنه يملك توقيعًا من الغيب، ثم قد تأتيه الحقيقة في لحظة لا تحمل أي اعتبارٍ لجدوله ولا لمواعيده ولا لأمنياته. وسورة القيامة تدخل إلى هذا الوهم دخول النور إلى غرفةٍ مغلقة؛ لا تحطم معنى الحياة، بل تحطم الكذب الذي يفسد معنى الحياة، لأنها لا تقول للإنسان: لا تعش، وإنما تقول له: اعرف ما الحياة، واعرف من وهبك إياها، واعرف إلى أين تمضي بها، حتى لا تنفق أثمن ما تملك في ما لا يبقى.

والعجيب أن اليقين بالموت والبعث لا يجعل المؤمن كائنًا منكفئًا عن الدنيا كما قد يتوهم بعض الناس، بل يمنحه قدرةً أصفى على وضع الأشياء في أحجامها الصحيحة؛ فلا يعبد النجاح لأنه يعرف زواله، ولا ينهار عند الفشل لأنه يعرف محدوديته، ولا يبيع ضميره ليحفظ مكانةً يعلم أنها مؤقتة، ولا يقتل قلبه حسدًا على متاعٍ يعرف أنه سيتركه صاحبه أو يترك صاحبه. إن الآخرة حين تدخل الوعي لا تُطفئ الدنيا، لكنها تخلّصها من الطغيان؛ تجعل المال وسيلةً لا إلهًا، والمنصب مسؤوليةً لا هوية، والجمال نعمةً لا خلودًا، والوجع مرحلةً لا مصيرًا، والظلم حادثةً لن تُغلق ملفاتها عند حدود الأرض. ولهذا كانت القيامة ضرورةً أخلاقية بقدر ما هي حقيقةٌ عقدية؛ فالعالم الذي لا حساب بعده عالم يستطيع القاتل أن ينجو فيه إذا أفلت من القاضي، ويستطيع المظلوم أن يموت دون أن يرى إنصافه، أما العالم الذي ختمه الله بالبعث فهو عالم لا تضيع فيه الذرة، ولا يفلت منه السر، ولا تتحول القوة العابرة إلى حقيقة نهائية.

ومن هنا نفتح هذا الكتاب لا لنزور المقابر بخيالنا ثم نعود كما كنّا، ولا لنرتجف لحظاتٍ أمام صور نهاية الكون ثم تنطفئ الرعشة، وإنما لنسمح للسورة أن تفعل فينا ما جاءت لتفعله: أن توقظ في النفس قاضيها، وأن تكسر شهوتها إلى التأجيل، وأن تردّ البصر من الخارج إلى الداخل، وأن تجعل المستقبل الأبدي حاضرًا في القرار اليومي. سنسير معها خطوةً خطوة، من قسم القيامة إلى سؤال العظام، ومن النفس اللوامة إلى الإنسان الذي يريد أن يفجر أمامه، ومن برق البصر إلى جمع الشمس والقمر، ومن سؤال المفر إلى استقرار المستقر، ومن بصيرة النفس إلى تلجلج الأعذار، ومن حفظ الوحي في صدر النبي ﷺ إلى فضيحة حب العاجلة، ومن نضرة الوجوه إلى بسور الوجوه، ومن التراقي إلى المساق، ومن التولي والتبختر إلى الخلق الأول، حتى تنتهي الرحلة عند السؤال الذي لا يترك للغفلة مأوى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

السورة التي تُقيم القيامة في القلب قبل أن تقوم في الكون

ثمة سورٌ في القرآن الكريم تدخل عليك من باب السكينة، وسورٌ تفتح لك أبواب التأمل على مهل، وثمة سورٌ تقف أمامك كجرسٍ هائل يدقّ في أعماق الوجود حتى لا يبقى في القلب موضعٌ صالح للنوم، وسورة القيامة من هذا القبيل؛ إنها لا تنتظر من غافلٍ أن يستعد لسماعها، بل توقظه، ولا تستأذن الوهم أن يفسح لها الطريق، بل تشقّه، ولا تجادل الإنسان في إنكار البعث بمجرد البرهان النظري، بل تحاصره من جهتين: قدرة الله من فوقه، وبصيرة نفسه من داخله. فإذا قال: كيف تُجمع العظام؟ جاءه الجواب من القدرة: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾، وإذا ألقى معاذيره وتفنن في البيان عن نفسه، جاءه الجواب من أعماقه: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾، فكأنه لا يملك في هذه السورة مهربًا لا في الخارج ولا في الداخل، لأن آيات الله تحيط به في الخلق، وشهادة نفسه تحيط به في الضمير.

وتأمل كيف تبدأ السورة بالقيامة قبل أن تُعرّفنا بتفاصيلها؛ لأن الاسم وحده كافٍ لأن يوقظ في القلب ذلك السؤال الكبير الذي قضى الإنسان عمره يحاول أن يدفنه تحت أسئلة صغيرة. إن أكثر ما يرهق الإنسان ليس أنه لا يعرف أن الموت موجود، بل أنه يعرف ويعيش طويلًا كأنه لا يعرف؛ وهذه واحدة من أعقد مفارقات النفس البشرية: أن يجتمع اليقين النظري بالغفلة العملية في قلبٍ واحد. يرى الجنازة، ويشيع الراحل، وينفض التراب عن ثوبه، ثم يعود إلى نزاعاته الصغيرة وكأن القبر كان مشهدًا يخص الآخرين، يسمع عن الموت كل يوم، لكنه يتعامل معه كما نتعامل مع خبرٍ شديد البعد، حتى إذا مسّه في قريب أو حبيب أحسّ بفجأة أن الستارة التي تفصل حياته عن الحقيقة رقيقة إلى حد الفزع.

والقرآن لا يريد للمؤمن أن ينتظر الصدمة كي يرى؛ إنه يعلمه أن يبصر قبل أن يُفجع، وأن يستحضر النهاية لا ليكره البداية، بل ليحسنها.

إن القيامة في التصور القرآني ليست خراب العالم فحسب، بل انكشاف العالم؛ ففي الدنيا تستطيع الأشياء أن ترتدي أسماء غير أسمائها، فيُسمى الجبن حكمة، والبخل تدبيرًا، والرياء أدبًا، والظلم مصلحة، والتعلق بالدنيا واقعية، والتفريط سماحةً مع النفس، ولكن القيامة يوم سقوط الأسماء المستعارة، حيث يعود كل شيء إلى حقيقته التي كان الله يعلمها وإن جهلها الناس. هناك لا يكون الإنسان ما قال عن نفسه، ولا ما كتب في سيرته، ولا ما نشره عنه محبوه، ولا ما أخفاه عنه خصومه، بل يكون ما كانه في علم الله؛ وهذه الفكرة وحدها تكفي لإحداث زلزالٍ أخلاقي في النفس، لأننا ننفق جزءًا كبيرًا من أعمارنا في إدارة صورتنا عند الناس، بينما سورة القيامة تعيد السؤال إلى موضعه الصحيح: ماذا بقي من الإنسان إذا سقطت الصورة وبقيت الحقيقة؟

ومن هنا كان حضور النفس اللوامة مبكرًا في السورة أمرًا بالغ الدلالة؛ لأن الطريق إلى النجاة من انكشاف الآخرة يبدأ بانكشاف الدنيا، وأن يعرف الإنسان نفسه قبل أن تُعرّف به صحائفه، وأن يجرؤ على الدخول إلى الغرف التي أغلقها في قلبه، وأن يسمّي خطأه خطأً من غير أن يزينه بعباراتٍ تخفف عنه وطأة الاعتراف. إن للنفس براعةً مدهشة في صناعة المبررات؛ تستطيع أن تحوّل شهوة الانتقام إلى طلبٍ للعدالة، وحب الظهور إلى حرصٍ على التأثير، والتكبر إلى حفظ كرامة، والهروب من الواجب إلى مراعاة الظروف، غير أن القرآن يهدم مصنع الأعذار كله بكلمات معدودة: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾؛ ما أكثر ما يقول الإنسان، وما أقل ما يحتاج الله إلى قوله، لأن القضية ليست في بلاغة الدفاع، بل في وضوح الحقيقة.

ثم إن السورة، وهي تتحدث عن النهاية، تكشف شيئًا عجيبًا عن علاقتنا بالزمن: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾. وكأن المرض المركزي الذي يتغذى منه كثير من انحراف الإنسان هو عبوديته لما هو قريب؛ فهو يرى اللذة الحاضرة ولا يرى أثرها البعيد، ويخشى خسارة اليوم ولا يخشى خسارة الأبد، ويضخم دقيقةً أمام عينيه حتى تحجب عنه عمرًا وراءها. «العاجلة» ليست اسمًا للدنيا فحسب، بل وصفٌ لآلية نفسية عميقة: أن يحكم الإنسان على الأشياء بحسب قربها من حسه، لا بحسب حقيقتها في ميزان الله؛ ومن هنا تصبح المعصية أحيانًا انتصارًا للحظة على المصير، ويصبح الصبر قدرةً على رؤية ما وراء اللحظة، وتصبح التقوى تدريبًا للروح على ألا تكون أسيرةً لما يلحّ عليها الآن.

وحين نبلغ في السورة إلى مشهد الاحتضار، تتساقط كل التجريدات، ولا يعود الموت فكرةً فلسفية؛ يصبح جسدًا تثقل عليه الأنفاس، وروحًا تبلغ التراقي، وأهلًا يحيطون بمن يحبون ولا يملكون له شيئًا، وسؤالًا يخرج في لحظة العجز: ﴿مَنْ ۜ رَاقٍ﴾. ما أشد قسوة الوهم حين يربّي الإنسان على أنه سيد مصيره، وما أرحم الحقيقة حين ترده إلى عبوديته قبل أن يفوت زمن العمل؛ فذلك الذي كان يأمر وينهى ويعد ويخطط ويؤجل، سيأتي عليه وقتٌ لا يستطيع أن يؤجل فيه نفسًا واحدًا. وفي هذه اللحظة يبلغ التوحيد إحدى ذراه الوجدانية: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾، فليست الطريق إلى مستشفى، ولا إلى بيت، ولا إلى وطن، ولا إلى حضن من نحب؛ إن آخر الطريق إلى الله، كما كان أول الطريق من الله، وبين البدء والمنتهى أعمارٌ قصيرة نُختبر فيها: ماذا فعلنا بالمسافة التي أعطيت لنا؟

إن سورة القيامة، بهذا كله، لا تريد أن تصنع إنسانًا مهووسًا بالموت، وإنما إنسانًا متحررًا من خداع الموت؛ الإنسان الذي يعرف أنه راحل يستطيع أن يحب بلا امتلاك، وأن يعمل بلا غرور، وأن يحزن بلا انهيار، وأن ينجح بلا عبودية للنجاح، وأن يخسر دون أن يظن أن

الكون انتهى، لأن أفقه أكبر من اللحظة. ومن لم يفهم الآخرة تضخمت عنده الدنيا حتى أصبحت كل شيء، فإذا فقد شيئًا منها شعر أنه فقد الوجود نفسه، أما من امتلأ قلبه بالآخرة فإنه لا يحتقر الدنيا، لكنه يمنعها من أن تحتل مقام الإله في وجدانه.

وهكذا سندخل سورة القيامة لا بوصفنا قراءً يقفون خارج المشهد، بل بوصفنا المعنيين به. سنسمع سؤال العظام كأنه سؤالٌ خرج من شكوك الإنسان الحديثة كلها، وسننظر إلى البنان كعلامة على القدرة التي لا يعجزها أدقّ تفصيل، وسنقف أمام النفس اللوامة لنعرف الفرق بين التوبة وبين جلد الذات، وبين الضمير الحي والنفس التي تتفنن في إهلاك صاحبها بالمعاذير، وسنرى البصر وهو يبرق، والقمر وهو يخسف، والشمس والقمر وهما يجمعان، لا بوصفها زخرفةً لمشهد الرعب، بل بوصفها سقوطًا للنظام الذي ظنه الإنسان أبديًا. فإذا بالشمس التي ضبط عليها مواعيده تنطفئ دلالتها، والقمر الذي قاس به الشهور يذهب سلطانه، والأرض التي ظنها وطنًا نهائيًا تتحول إلى ممر، ولا يبقى من السؤال إلا: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾، ثم يأتي الجواب الذي يختصر المصير كله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

وعندئذٍ سنكتشف أن أجمل ثمرةٍ يمكن أن تهبها لنا سورة القيامة ليست الخوف وحده، بل الوضوح؛ أن نعرف من نحن، وإلى أين نسير، ولماذا أوتينا هذا العمر، ولماذا يؤلمنا الضمير، ولماذا لا تكفي الدنيا مهما اتسعت، ولماذا يطارد الإنسان سؤال البقاء ولو ملك الأرض. إن في أعماق كل قلب حنينًا إلى ما لا ينقطع، لكن الخطأ أن يطلب الخلود في الأشياء الفانية؛ فيريد أن يخلد بالمال، أو بالاسم، أو بالولد، أو بالصورة، أو بالسلطان، بينما تعلّمه سورة القيامة أن الخلود ليس هنا أصلًا، وأن من أراد البقاء فعليه أن يهيئ نفسه للدار التي خُلقت للبقاء.

هذه، إذن، ليست رحلة إلى نهاية الكون بقدر ما هي رحلة إلى نهاية الوهم؛ الوهم الذي يقول إن الوقت طويل، وإن الجسد باقٍ، وإن الحساب بعيد، وإن النفس لا تعرف حقيقتها، وإن المعاذير قادرة على تغيير الوقائع، وإن الإنسان يمكن أن يعيش بلا غاية ثم يمضي بلا سؤال. ستسقط هذه الأوهام واحدًا بعد آخر، حتى يقف الإنسان في آخر السورة أمام أصله الأول: نطفةً من منيٍّ تمنى، ثم علقةً، ثم خلقًا سويًّا، ثم ذكرًا أو أنثى، ثم يسأل القرآن السؤال الذي لا يحتاج بعد هذا التاريخ من القدرة إلى برهان آخر: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

وبين أول السورة وآخرها تمتد الرحلة كلها: من الإنسان الذي ينكر أن تُجمع عظامه إلى الإنسان الذي يُذكَّر كيف خُلق أصلًا؛ ومن سؤال الشك إلى برهان الخلق، ومن المعاذير إلى البصيرة، ومن العاجلة إلى الآخرة، ومن الغفلة عن الموت إلى مشاهدته وهو يصعد في الجسد منزلةً منزلة، ومن وهم الاستقلال إلى حقيقة المساق. وحين ينتهي القارئ من سورة القيامة كما ينبغي ألا يكون قد عرف شيئًا جديدًا عن الموت فحسب، بل ينبغي أن يكون قد عرف شيئًا أصدق عن الحياة؛ لأن القرآن حين يذكّرنا بالنهاية لا يريد أن يسرق منا الطريق، بل يريد أن يمنعنا من أن نضيعه.

الفصل الأول

حين يقف الإنسان شاهدًا على نفسه

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۞ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۞ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۞ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾

تبدأ سورة القيامة بدايةً لا تسمح للقلب أن يظل واقفًا خارج الحدث، فالقرآن لا يمهّد طويلًا، ولا يفتح لنا بابًا جانبيًّا إلى المعنى، وإنما يضعنا منذ اللفظة الأولى أمام اليوم الذي تنتهي عنده كل المماطلات، وتسقط فيه كل المراتب التي اصطنعها البشر لأنفسهم، ويغدو الملك والمملوك، والقوي والضعيف، والمشهور والمغمور، والآمر والمأمور، أجسادًا بعثها ربها من التراب لتقف في مقامٍ واحد أمام الحقيقة التي كانت تتفاوت في الإيمان بها ولا تتفاوت في الخضوع لها. ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ افتتاح يهزّ استقرار النفس، ويجعل يوم القيامة حاضرًا قبل أن تبدأ السورة في وصفه، فكأن مجرد ذكر الاسم ينبغي أن يكون كافيًا لاستنفار الضمير، لأن المؤمن لا يسمع «القيامة» كما يسمع اسم يومٍ من أيام التاريخ، وإنما يسمعها فيشعر أن حياته كلها قد وُضعت فجأة على ميزان، وأن ما يبدو متناثرًا من أقواله وأعماله واختياراته ليس متناثرًا في علم الله، بل يمضي في اتجاه يومٍ ستُجمع فيه التفاصيل كما تُجمع العظام.

ولفظ القسم هنا يحمل من الجلال ما يجعل الإنسان يشعر أن القضية ليست احتمالًا فلسفيًّا يمكن أن يضعه إلى جوار احتمالات أخرى، وإنما يقينٌ يقسم الله عليه، بينما المخلوق هو

الذي يتردد ويشك ويطلب البرهان بعد البرهان. وما أعجب الإنسان حين يطلب من خالقه أن يبرهن له على البعث بينما يحمل في جسده كل لحظة برهان الخلق الأول؛ يمشي بعظام لم يصنعها، وينظر بعين لم يفتحها لنفسه، ويتكلم بلسان لم يخترع آليته، ويتنفس بقلبٍ ورئتين لا يديرهما بإرادته، ثم يقف بعد ذلك يسأل: كيف يعيدني الله؟ إن المدهش في إنكار البعث ليس صعوبة البرهان عليه، بل قدرة الإنسان على الغفلة عن البرهان الذي يسكنه.

ثم تأتي الآية الثانية فتضع إلى جوار القيامة الكبرى شاهدًا داخليًّا بالغ القرب: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾. وهنا تنفتح السورة من الكون إلى الضمير، ومن يوم الحساب العام إلى محكمةٍ صغيرة أقامها الله في أعماق الإنسان، محكمة قد ينجح المرء في إسكاتها زمنًا، لكنه قلّ أن يستطيع اقتلاعها من أصلها ما دام القلب فيه بقية من حياة. والنفس اللوامة هي تلك النفس التي لا تمر على الخطأ مرور الحجر على الحجر، بل تعود إلى صاحبها بالسؤال: لماذا فعلت؟ لماذا قلت؟ لماذا خنت ما كنت تعرفه؟ لماذا رضيت لنفسك بما كنت تستقبحه من غيرك؟ وهي بهذا ليست مجرد صوت تأنيب، بل علامة على أن في الإنسان معرفةً أخلاقية لا تنسجم دائمًا مع أهوائه، وأن داخله ليس كتلةً واحدة متصالحة مع كل ما يفعل، بل ميدان تتجاذبه الرغبة والبصيرة، الشهوة والضمير، التبرير والحقيقة.

وليس كل لومٍ محمودًا، فالنفس قد تنقلب على صاحبها فتيأسه، وقد يتجاوز تأنيبها حد الإصلاح إلى الهدم، ولكن موضع العبرة هنا أن الإنسان لم يُخلق خاليًا من القدرة على مراجعة نفسه، وأن من أعظم نعم الله عليه أن يتألم إذا زلّ، لأن الألم الأخلاقي قد يكون أول الطريق إلى الشفاء. والذنوب لا تكون أشد خطرًا حين تقع فقط، بل حين تفقد النفس حساسيتها تجاهها؛ حين يكذب الإنسان فلا يعود يشعر أن شيئًا قد انكسر فيه، ويظلم فلا يطرق قلبه سؤال، ويؤذي ثم ينام راضيًا عن نفسه، ويخون الأمانة ثم يصف خيانته

بلفظ ألطف كي لا يرى وجهها الحقيقي. هنا لا تكون المشكلة مجرد خطيئة ارتُكبت، بل موت جزء من جهاز الإنذار الداخلي الذي كان يمكن أن يعيده.

ومن العجيب أن السورة تقرن القيامة بالنفس اللوامة قبل أن تنتقل إلى إنكار البعث، وكأنها تقول للإنسان: قبل أن تسأل عن الحساب البعيد، انظر إلى أثره المزروع فيك من الآن، لماذا تلوم نفسك إذا لم يكن للخير والشر وزن؟ لماذا يطاردك بعض ما فعلت بعد أن ينتهي الفعل ويغيب الشهود؟ لماذا تتمنى أحيانًا لو استطعت أن تعود إلى كلمة خرجت منك فتردّها إلى فمك، أو موقفٍ وقفتَه فتختار غيره، أو حقٍ ضيعته فتستدركه؟ ذلك لأن الإنسان ليس مجرد جسد يبحث عن اللذة ويتجنب الألم، وإنما هو كائن أخلاقي يعيش في داخله معنى المسؤولية، ولو حاول أن يدفنه تحت طبقات المصلحة.

ولعل من أعمق وجوه التربية في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ أن المؤمن لا ينبغي أن يكون شديد الانشغال بمحاسبة الناس قليل المحاسبة لنفسه؛ فمن أسهل الأشياء أن ترى عيوب الخارج، ومن أصعبها أن تسلط نورًا كاملًا على نفسك من غير أن تميل بالمصباح نحو المواضع التي تحب أن تراها وحدها. نحن نقرأ نيات الآخرين من أفعالهم، ثم نلتمس لأنفسنا الأعذار من نياتنا، نحاسبهم على النتيجة ونحاسب أنفسنا على القصد الذي ندعيه، وقد ننسب إليهم الخبث من زلة وننسب لأنفسنا الطيبة بعد سلسلة من الأخطاء. أما النفس اللوامة الصادقة فإنها تعيد ميزان العدل إلى موضعه، تبدأ من الداخل، ولا تسمح للإنسان أن يستعمل حسن الظن بنفسه آلةً لتعطيل التوبة.

ثم يأتي السؤال الذي ينقل السورة إلى أصل الشبهة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾. إن التعبير بـ﴿أَيَحْسَبُ﴾ بالغ الدقة؛ فالمشكلة في كثير من الأحيان ليست علمًا وصل إليه

الإنسان، بل حسبانًا استقر في نفسه حتى عاش على مقتضاه. إنه لا يملك برهانًا على استحالة البعث، وإنما يألف منظر الجسد حين يتحلل، ويرى العظام حين تتفرق، ثم يقيس قدرة الله على حدود ما اعتاده من قدرته البشرية، فيبدو له الجمع بعيدًا لأنه لو كُلّف هو بجمع ذرات جسدٍ تفرقت في التراب لعجز. وهكذا ينشأ كثير من الشك حين يقيس المخلوقُ الخالقَ على نفسه، يضع القدرة الإلهية داخل القوانين التي يخضع لها هو، ثم يتعجب مما يتجاوز تصوره، مع أن أصل الإيمان أن الله ليس محكومًا بضعفنا، ولا محدودًا بحدود أدواتنا، ولا مفتقرًا إلى الوسائل التي نفتقر إليها.

والعظام تُذكر لأنها تمثل عند الحس البشري البنية التي إذا تفتتت بدا استرجاع الإنسان مستبعدًا، فكأن السؤال يبلغ أقصى ما يمكن أن يتخيله المنكر من صور الاستحالة: أإذا صرنا عظامًا بالية متفرقة يعاد جمعنا؟ ويأتي الجواب لا بالموافقة على إمكان جمع العظام فحسب، بل بما هو أدق وأشد إذهالًا: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾. ليس الأمر مجرد إعادة الهيكل الكبير، القدرة الإلهية تبلغ دقائق البنان، وتعيد ما يظنه الإنسان تفصيلًا صغيرًا في أطراف أصابعه. فإذا كان الذي خلق التفاصيل أول مرة قادرًا على إعادتها، فما شأن العظام الكبرى أمام قدرته؟ إن الآية تنتقل بالإنسان من سؤال الجمع إلى معنى الإتقان؛ فالذي يعيدك ليس صانعًا يحاول استرجاع صورةٍ فقد ملامحها، بل خالقك الذي لم تغب عنه منك ذرة.

و﴿بَنَانَهُ﴾ يردّ الإنسان إلى نفسه بألطف شيء وأدقه، تلك الأصابع التي يقلب بها الصفحات، ويكتب، ويصافح، ويشير، ويقبض، ويبسط، ويحمل، ويمسح دمعة طفل، وربما يوقّع بها ظلمًا، أو يكتب بها كلمة خير، أو تمتد إلى حرام، أو ترفع في دعاء؛ هذه البنان نفسها جزء من الشهادة التي يحملها الجسد معه. وما أكثر ما يتعامل الإنسان مع جسده كأنه

ملكٌ خالص له، ثم يأتي القرآن ليعيد تعريف الجسد: إنه مخلوق من الله، وموهوب للإنسان مدةً محدودة، وسيعاد إليه يوم الحساب. ليست اليد ملكًا مطلقًا تفعل بها ما تشاء بلا تبعة، ولا العين نافذةً مفتوحة بلا سؤال، ولا اللسان عضوًا يطلق الكلام ثم ينتهي الأمر بانتهاء الصوت؛ كل هذا الجسد داخل في معنى الأمانة، وكل ما تناثر منه في التراب محفوظ في علم الخالق الذي أنشأه أول مرة.

وحين يقول الله: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ فإن الآية لا تعطي للعقل جوابًا فحسب، بل تربي فيه التواضع؛ أنت الذي تعجز عن الاحتفاظ بشباب وجهك سنواتٍ معدودة، وتراقب جسدك يتغير رغمًا عنك، ولا تستطيع أن تمنع شعرةً من الشيب إذا جاء أوانها، كيف تقيس قدرة خالقك على قدرتك؟ أنت لا تعرف على وجه الإحاطة ما يجري في جسدك في هذه اللحظة، بينما الله يعلم ما تفقده الخلايا وما تبنيه، وما غاب في التراب وما بقي، وما كان منك في أصل الخلقة وما سيكون. إن إنكار البعث حين يُنظر إليه من زاوية القدرة الإلهية ينكشف عن غرابة شديدة؛ فالذي أوجد من عدم لا يعجزه أن يعيد بعد وجود.

لكن السورة لا تظل طويلًا في ميدان البرهان العقلي، لأنها تريد أن تذهب إلى ما وراء الشبهة المعلنة، فتقول: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾. وهنا يحدث واحد من أعمق التحولات النفسية في السورة؛ فالقرآن يكشف أن مشكلة الإنسان قد لا تكون أنه لم يجد جوابًا عن البعث، وإنما أنه لا يريد أن يكون البعث صحيحًا؛ لأن الإيمان به يضع حدودًا أمام شهوته، ويحوّل المستقبل من فضاء مفتوح للرغبة إلى طريقٍ تحكمه المسؤولية. إنه يريد أن «يفجر أمامه»، أن يمضي فيما يستقبل من أيامه بلا قيدٍ أخلاقي يحاصره، ولا حسابٍ يقف في نهاية الطريق، ولا غدٍ أبدي يفسد عليه لذة اللحظة التي يريدها الآن.

وهنا يبلغ القرآن طبقةً من النفس لا تبلغها المناقشات السطحية؛ فليست كل الأفكار التي يتبناها الإنسان ناتجةً عن بحثٍ محايد، وقد يكون وراء بعض القناعات رغبة دفينة في أن يكون العالم على نحوٍ يسمح للهوى أن يفعل ما يشاء. والإنسان بارع في أن يمنح رغبته ثوب الفكرة؛ يشتهي أولًا، ثم يبحث لعقله عن فلسفةٍ تشرعن الاشتهاء، ويرغب في التحرر من التكليف، ثم يفتش عن سؤالٍ يزعزع التكليف، ويحب أن تكون الحياة بلا حساب، ثم يجعل رغبته في غياب الحساب اعتراضًا على وجوده. ولذلك فإن أخطر الأسئلة ليست دائمًا تلك التي يطرحها اللسان، بل الدافع الذي يقف خلفها؛ لأن السؤال نفسه قد يخرج من قلب باحثٍ يريد الحق، وقد يخرج من قلبٍ يريد مخرجًا من الحق.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾؛ ما أوجزها من آية، وما أوسع ما تكشفه من سيكولوجيا التسويف. إن «أمامه» هي المنطقة التي لا تزال غير مكتوبة من عمره، الأيام التي يظن أنها ملك يده، والغد الذي يفتح له أبوابه في خياله. لا يكفيه أن تكون له أخطاء في الماضي، بل يريد أن يحتفظ بحق الخطأ في المستقبل؛ يريد بابًا مفتوحًا للشهوة كلما دعته، ويريد أن يؤجل التوبة دون أن يشعر أنه خسر شيئًا، كأن العمر مخزنٌ لا ينفد، وكأن الموت يرسل إشعارًا قبل وصوله بسنوات. وهنا يظهر أن التسويف ليس ضعفًا في إدارة الوقت فحسب، بل قد يكون موقفًا روحيًّا من الحقيقة؛ لأن الذي يقول: سأتوب لاحقًا، يفترض ضمنًا أن «لاحقًا» مملوك له، بينما العمر كله وديعة لا يعلم صاحبها متى تُسترد.

وكم من إنسان لا يرفض الله صراحة، ولا ينكر الآخرة بلسانه، لكنه يعيش عمليًّا وكأن لا لقاء؛ يؤخر الصلاة لأنه مشغول، ويؤخر رد الحق لأنه سيصلح الأمر غدًا، ويؤخر الاعتذار لأن الوقت لم يحن، ويؤخر المصالحة لأنه ينتظر أن يبدأ الآخر، ويؤخر التوبة لأنه لا يزال شابًا، ثم تمضي السنون وهو يضع بينه وبين العودة كلمة واحدة: «لاحقًا». إن ﴿لِيَفْجُرَ

﴿أَمَامَهُ﴾ تصف هذه الرغبة في إبقاء المستقبل تحت سلطان الهوى، وهي من أخطر أوهام الإنسان؛ لأن الماضي خرج من يده، والحاضر لا يملك منه إلا اللحظة، والمستقبل لم يُعط له بعد، ومع ذلك يبني عليه أكبر مشاريع الغفلة.

ثم يختم هذا المقطع بقوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾، والسؤال في سياقه ليس سؤال المستعد الذي يسأل عن الموعد ليتهيأ، بل يحمل معنى الاستبعاد والاستهزاء والتحدي: متى هذا اليوم الذي تذكرونه؟ ولعل من طبيعة الإنسان حين يطول الأجل أن يظن أن ما تأخر لن يأتي؛ يرى الليل يتكرر والصباح يعود، والأعمال مستمرة، والأسواق مفتوحة، والأطفال يولدون، والناس يخططون، فينشأ داخله وهم الاستمرار، مع أن تكرار النظام لا يعني أبديته. كل شروقٍ للشمس ليس ضمانًا لشروقها غدًا، وكل نبضةٍ من القلب ليست عهدًا بالنبضة التالية، وإنما انتظام العالم رحمة من الله، لا استقلالًا عن إرادته.

والمفارقة أن الإنسان الذي يسأل: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ قد تقوم قيامته الخاصة قبل أن تقوم القيامة العامة؛ يموت فينتهي زمن عمله، وتصبح الساعة بالنسبة إليه أقرب مما كان يتصور. ولذلك كان الانشغال بتحديد الموعد أقل شأنًا من الاستعداد للموعد؛ فلو عرفت متى تموت ولم تتغير، ماذا أفادتك المعرفة؟ ولو جهلت الساعة وعشت في يقظةٍ لها، ماذا أضرك الجهل؟ لقد حجب الله عن الإنسان وقت موته لكي لا يحصر صلاحه في آخر الطريق، وحجب وقت الساعة عن الخلق لتظل المسؤولية مستمرة، وليكون الإيمان امتحانًا للضمير لا استجابةً مذعورة لجدولٍ زمني معلوم.

إن هذا المقطع الأول من السورة يؤسس منذ البداية لأخطر حقائقها: إن معركة الإنسان مع القيامة ليست معركة دليل فحسب، بل معركة إرادة؛ فالله يضع أمامه برهان الخلق،

وفي داخله النفس اللوامة، وفي جسده شاهد القدرة، وفي الموت الذي يراه كل يوم نذير النهاية، ومع ذلك يستطيع أن يفر من كل ذلك إذا أحب الفجور أمامه. وهنا ندرك أن الهداية ليست أن يرى العقل الحق فقط، بل أن يرضى القلب بتبعاته؛ لأن الإنسان قد يعرف الطريق ثم يكرهه لما فيه من تكليف، وقد يعرف الدواء ثم يتركه لما فيه من مرارة، وقد يعرف الحقيقة ثم يصنع بينها وبين هواه ستارًا من الأسئلة.

ومن ثم فإن أول ما تدعونا إليه سورة القيامة ليس أن نحدق في نهاية العالم، بل أن نسأل أنفسنا عن الموضع الذي نقف فيه الآن: هل النفس فينا ما تزال تلوم؟ هل نتألم حين نبتعد عن الله، أم ألفنا البعد حتى صار عاديًا؟ هل اعتراضاتنا على الحق صادرة عن بحثٍ مخلص، أم تختبئ وراءها رغبات لا نريد الاعتراف بها؟ هل نؤجل ما نعلم أنه واجب لأننا نملك عذرًا حقيقيًا، أم لأن «أمامنا» في خيالنا زمنًا طويلًا نريد أن نفجر فيه ثم نتوب في آخره؟ هذه الأسئلة هي القيامة الصغيرة التي تريد السورة أن تقيمها في القلب قبل القيامة الكبرى، لأن أرحم ما يمكن أن يقع للإنسان أن يُحاسب نفسه وهو قادر على التغيير، قبل أن يقف في موطنٍ لا يملك فيه إلا رؤية ما فعل.

وهكذا ينتهي المقطع الأول، وقد وضع الإنسان بين شاهدين لا يستطيع في الحقيقة أن يفر منهما: قدرة الله التي تقول له إن جسدك لن يضيع، وبصيرة نفسك التي تقول له إن حقيقتك لن تضيع، وسيأتي الآن المشهد الذي يجيب عن سؤاله المستهزئ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾، لا بتاريخ ولا رقم، بل بصورة تهدم السؤال نفسه، حين يبرق البصر، ويخسف القمر، وتُجمع الشمس والقمر، ويكتشف الإنسان أن اللحظة التي كان يسأل عنها من بعيد قد أصبحت العالم كله من حوله.

الفصل الثاني

حين يسقط سقف العالم ويبحث الإنسان عن مفرّ

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾

كان يسأل قبل قليل: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾، فجاءه الجواب لا بصيغة تقريرية جافة، وإنما بمشهدٍ يخطف البصر نفسه الذي كان ينظر إلى الدنيا مطمئنًا إلى انتظامها: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾. كأن القيامة تبدأ في إدراك الإنسان قبل أن تبدأ في الأشياء من حوله؛ فالبصر الذي كان أداة السيطرة والمعرفة والتقدير يتحول فجأة إلى بصرٍ مبهوت لا يملك إلا أن يشهد. في الدنيا ينظر الإنسان إلى العالم فيظن أنه يفهمه ويقيسه ويحكم عليه، أما في القيامة فإن العالم هو الذي يقتحم عينيه بما لا قدرة له على استيعابه، وتصبح النظرة نفسها جزءًا من الرعب. لقد كان يستطيع في الدنيا أن يصرف بصره عن الموعظة، وأن يغلق الصفحة، وأن يغادر مجلس التذكير، وأن يهرب من مشهد الجنازة، أما هناك فلا جهة أخرى يصرف إليها عينيه؛ لأن القيامة ليست مشهدًا في العالم، بل العالم كله قد صار قيامة.

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾، ذلك الجرم الذي رافق الإنسان في لياليه، وجعل منه الشعراء رمزًا للجمال، والمسافرون علامةً في الطريق، وأقام الله به للناس حسابًا للزمن، يفقد يومئذ نظامه المألوف. والقمر هنا ليس تفصيلًا فلكيًّا فحسب، بل جزء من انهيار الألفة؛ لأن أشد ما يفزع الإنسان أن تتغير الأشياء التي ظنها ثابتة. نحن نطمئن إلى العالم لأن قوانينه تتكرر، ونبني خططنا لأننا نفترض أن الصباح سيأتي كما جاء بالأمس، وأن السماء ستظل في مكانها،

وأن الأرض ستبقى تحت القدم، فإذا بدأت الثوابت نفسها تتغير أدرك الإنسان كم كان ضعيفًا تحت ستار الاستقرار.

ثم يبلغ المشهد ذروة أشد: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾. الشمس والقمر اللذان شكلا للإنسان منذ بدايات وعيه علامتين عظيمتين لنظام الكون يدخلان في صورةٍ أخرى من صور انتهاء هذا النظام، وكأن الزمن نفسه الذي كان يُقاس بحركتهما قد بلغ نهايته. وما أشد وقع ذلك على الإنسان الذي جعل حياته كلها رهينة الوقت؛ مواعيد، أعمار، آجال، سنوات، خطط، انتظار، استعجال، تأجيل، ثم يأتي يوم لا يعود فيه الزمن مساحةً للعمل، بل يصبح ما مضى منه شاهدًا على صاحبه.

وعند انهيار المشهد كله لا يقول الإنسان: كيف حدث هذا؟ ولا يبحث أولًا عن تفسير الظاهرة، بل يصرخ بالسؤال الذي يكشف الغريزة الأولى عند الخطر: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾. هذه الكلمة وحدها تلخص تاريخًا كاملًا من فرار الإنسان؛ فقد أمضى حياته يفر من الألم إلى المتعة، ومن الخوف إلى الأمان، ومن الفقر إلى المال، ومن الوحدة إلى الناس، ومن الفشل إلى المحاولة، ومن الخصم إلى الحصن، وكان لكل خطرٍ في الدنيا طريق محتمل للنجاة، حتى استقر في نفسه أن لكل مأزق مخرجًا، فإذا جاء يوم القيامة اكتشف لأول مرة خطرًا لا مكان للهرب منه، لأن الذي يحاصره ليس جيشًا ولا كارثةً أرضية، بل سلطان الله الذي لا تخرج منه جهة.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾؛ لا ملجأ، لا حصن، لا جبل، لا نظام، لا دولة، لا مال، لا اسم، لا قبيلة، لا أصدقاء، ولا تلك الشبكة الواسعة من الأشياء التي تعود الإنسان أن ينسجها حول نفسه ليشعر بأنه محمي. الكلمة قاطعة لأنها تهدم آخر عادة نفسية في الإنسان: عادة البحث

عن شيءٍ سوى الله يحتمي به من الحقيقة. وكم في حياتنا من «وَزَر» وهمي نركن إليه، مكانة نظن أنها تمنع عنا السقوط، مال نتخيله ضمانًا ضد كل خوف، إنسان نضع عليه من الاتكال ما لا يحتمله بشر، صحة نتصرف معها كأن المرض لا يجد إلينا طريقًا، شباب نحسبه سورًا بيننا وبين الموت، ثم يكشف الزمن، قليلًا قليلًا، أن كل هذه الأوزار تتداعى، وأن الملجأ الحقيقي لم يكن يومًا خارج العبودية لله.

ثم تأتي الجملة التي تستقر بها السورة كما يستقر الحكم بعد اضطراب المحكمة: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾. يا لعظمة الإضافة: إلى ربك؛ ليس المصير إلى مجهول، ولا إلى قوة عمياء، ولا إلى فراغ كوني، وإنما إلى الرب الذي خلق وربّى وأنعم وأهل وأرسل الرسل وأنزل الكتاب وفتح أبواب التوبة. والقيامة، على شدتها، ليست خروجًا من سلطان الرحمة والعدل إلى العبث، بل رجوعٌ إلى الله الذي لا يظلم مثقال ذرة. غير أن هذه الإضافة التي تسكن قلب المؤمن تهز قلب الغافل؛ لأن من عاش هاربًا من ربه سيكتشف أن نهاية كل الطرق إليه، ومن عاش لله سيكتشف أن نهاية غربته إلى مولاه.

والـ﴿مُسْتَقَرُّ﴾ يعيد تعريف فكرة الاستقرار كلها؛ كم من إنسان قضى عمره يبحث عن مستقر في دار لم تُخلق للاستقرار، يغير بيتًا بعد بيت، وعملًا بعد عمل، ومدينةً بعد مدينة، ويظن أن قلقه سببه أن المكان لم يكتمل بعد، بينما شيء في أعماق الروح يعلم أن الدنيا كلها لا تصلح أن تكون المستقر الأخير. ليست المشكلة أن البيوت ناقصة، بل أن الإنسان يريد من المؤقت أن يعطيه معنى الدائم، ويريد من العابر أن يملأ فراغ الأبد. وسورة القيامة تردّ الكلمة إلى موضعها: المستقر الحقيقي ليس هنا؛ إنما هناك، عند الله، حيث ينتهي الامتحان وتظهر عاقبة الطريق.

وهكذا فإن مشهد انهيار الشمس والقمر ليس مرادًا به أن نخرج من السورة مذعورين من الكون، وإنما أن نخرج متحررين من عبادته؛ فما دام هذا النظام العظيم نفسه سيُطوى بأمر الله، فكيف يتعلق القلب بما هو أصغر منه حتى ينسى الله؟ وما دام كل حصن سيزول، فلماذا نبني كرامتنا على حصن؟ وما دام المفر سينتهي، فلماذا لا نفر إلى الله الآن، في الزمن الذي لا يزال فيه الفرار إليه نجاةً واختيارًا، قبل أن يكون المساق إليه حتمًا لا اختيار معه؟ إن أعجب مفارقة في حياة الإنسان أنه يفر من الله في الدنيا إلى أشياء خلقها الله، ثم إذا انكسرت تلك الأشياء لم يجد إلا الله؛ ولذلك كان من الحكمة أن يتعلم القلب مبكرًا أن الوجهة التي ستكون آخر الطريق ينبغي أن تكون أول الطريق أيضًا.

الفصل الثالث

حين تسقط المعاذير ويبقى الإنسان أمام سيرته

﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾

بعد أن ينهار في المشهد السابق كلُّ مفرّ، وبعد أن يسمع الإنسان الحقيقة القاطعة: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾، لا تتركه السورة في رهبة المصير الكوني وحده، بل تعيده إلى ما هو أشد اتصالًا به وأقرب إلى جلده وذاكرته: إلى سيرته هو؛ إلى الأيام التي عبرها، والكلمات التي نطق بها، والنيات التي أخفاها، والخيرات التي قدّمها، والشرور التي أرسلها أمامه، والآثار التي خلّفها بعده، فتأتي الآية كأنها فتحٌ مفاجئ لأرشيف العمر كله: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾. هنا لا يعود السؤال أين المفر، لأن المفر قد انتهى، وإنما يبدأ الإنسان في مواجهة ما كان يفرّ منه أصلًا: مواجهة حقيقة نفسه، فلا يُنَبَّأ بما قاله الناس عنه، ولا بما نجح في إقناعهم به، ولا بالصورة التي استطاع بناءها في المجتمع، وإنما يُنَبَّأ بما قدّم وما أخّر؛ أي بما خرج من عمره إلى ذلك اليوم، وبما ترك وراءه من آثار تمتد بعد موته، وفق ما دلت عليه الآية من إحاطة الحساب بالأعمال وآثارها، حتى يصبح الزمن الذي ظنه قد مضى وانتهى حاضرًا كله أمامه.

وما أرهف هذا التعبير: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ﴾؛ فالنبأ في اللسان ليس شيئًا تافهًا، وإنما خبرٌ ذو شأن، وكأن حياة المرء التي عاشها متفرقةً في أيام متناثرة ستتحول يوم القيامة إلى نبأ واحد جامع، إلى قصة مكتملة لا يملك صاحبها أن يحذف منها فصلًا أو يعدّل فقرة أو يستدرك

قرارًا. إن الإنسان في الدنيا يعيش الحياة على هيئة لحظات، فيرى الذنب لحظةً ثم تنقضي، ويرى الإحسان لحظةً ثم ينساه، ويحسب أن كثيرًا مما جرى قد ذاب في الزمن، لكن القرآن يكشف أن الزمن لا يبتلع الأعمال كما نتوهم؛ إنها تنتقل من صورتها العابرة إلى سجلها الباقي، وما انطفأ من الذاكرة لم ينطفئ من العلم الإلهي. وربما كانت إحدى أخطر خدع الزمن أنه يمنحنا الإحساس بأن ما مضى قد زال، فننسى أن الانقضاء شيء، والضياع شيء آخر؛ الماضي انقضى من قدرتنا على تغييره، لكنه لم يضع من علم الله، وقد غاب عنا فعله لكنه لم تغب آثاره.

و﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ تحمل الإنسان على أن يرى العمر لا من زاوية الحاضر وحده، بل من زاوية الامتداد؛ فبعض الأعمال تنتهي بانتهاء لحظتها، وبعضها يظل يمشي بعد صاحبه كأن له قدمين مستقلتين عنه. كلمة خير قد يقولها في مجلس صغير ثم تبلغ قلبًا فيتغير بها، وعلم ينشره فيستضيء به من لم يره، وولد صالح يربيه فيصبح صلاحه امتدادًا لدعوته، وصدقة يضعها في موضعها فتظل آثارها بعد انقطاع يده؛ وفي الجهة الأخرى قد يترك الإنسان ظلمًا لم يرده إلى صاحبه، أو فكرة فاسدة تتناقلها الألسن، أو سنة سيئة يقلده الناس فيها، أو جرحًا أحدثه في قلبٍ ثم مضى غير عابئٍ بما سيظل ذلك القلب يحمله من بعده. إننا لا نعرف دائمًا إلى أين تنتهي آثارنا، ولذلك كان من الحكمة أن يخاف المرء من الشر الذي يتركه وراءه أكثر مما يخاف من شر ينتهي في ساعته، وأن يرجو من الخير الذي يغرسه أكثر مما يرى من ثمرته العاجلة.

هذه الآية تضع أمامنا سؤال الإرث الحقيقي؛ لا الإرث الذي يتركه الإنسان من العقارات والحسابات والأسماء، بل ما يتركه من أثر في ميزان الله. قد يموت رجل فقير لا يملك شيئًا في حسابات الأرض، لكنه يترك وراءه قلبًا علّمه الإيمان، وطفلًا ربّاه على الصدق، وكلمةً

دفعت إنسانًا إلى التوبة، فيكون ما «أخّر» خيرًا يجري بعده، وقد يموت آخر وقد ترك ثروةً عظيمة، لكنه ترك معها ظلمًا أو فسادًا أو أبوابًا للشر لا تزال تُفتح باسمه. القيامة تعيد ترتيب مفهوم الخلود الذي يطارد البشر، فالخلود ليس أن يبقى اسمك على جدار، وإنما أن تبقى لك آثار تجدها في ميزانك حين تُعرض الأعمال.

ثم تنقلنا السورة من الخبر الخارجي إلى أخطر شاهد داخلي: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾. وما أعجب هذه الآية، فإنها لا تقول إن الإنسان يعرف شيئًا عن نفسه فحسب، بل تجعله كأنه عينٌ مفتوحة على ذاته، بصيرة لا تحتاج في أصل المعرفة إلى شهادة أحد. يستطيع الإنسان أن يضلل الناس في تفسير أفعاله، ويمكنه أن ينتقي من قصته ما يعرضه وأن يخفي ما يشاء، وقد يمتلك قدرةً هائلة على صياغة الرواية التي تجعله في عين الآخرين بريئًا أو مظلومًا أو بطلاً، لكنه حين يعود إلى المنطقة التي لا يسمع فيها سوى صوت نفسه يعرف أشياء لا يعرفها عنه أحد؛ يعرف اللحظة التي تغير فيها قصده، والسبب الحقيقي وراء كلمة قالها، والغيرة التي خبأها تحت ستار النصيحة، والكبرياء الذي لبسه ثوب الكرامة، وحب الظهور الذي سماه حرصًا على المصلحة، والانتقام الذي منحه اسم العدل.

وهذا من أعظم ما يكشفه القرآن عن النفس البشرية: أنها ليست جاهلةً بكل ما يجري داخلها كما نتظاهر أحيانًا، بل قد يكون الإنسان أشد الناس معرفةً ببعض دوافعه، ثم يبذل جهدًا طويلًا في الهروب من تلك المعرفة. ولعل العذاب النفسي الذي يصيب المرء أحيانًا ليس لأنه لا يعرف الحقيقة، بل لأنه يعرفها ويحاول أن يعيش على نقيضها؛ فتبدأ الروح في صناعة الضجيج حتى لا تسمع نفسها، ويكثر الإنسان من الكلام عن الآخرين حتى لا يلتفت إلى الداخل، ويملأ أيامه بالانشغال لأن الصمت قد يضعه فجأةً أمام مرآة لا يحب ما يراه فيها. وفي مثل هذه الأحوال يصبح الهروب من الوحدة أحيانًا هروبًا من الشهادة

الداخلية، لأن بعض الناس لا يخاف أن يكون وحده بقدر ما يخاف أن يسمع صوته الحقيقي حين يسكت العالم من حوله.

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ليست إذن آيةً في المعرفة فحسب، بل في المسؤولية أيضًا؛ لأن معرفة الإنسان ببعض ما في نفسه تقطع عليه طريق التذرع بالجهل المطلق، وتدعوه إلى قدرٍ أعلى من الصدق مع الذات. وهذه البصيرة قد تغشاها الأهواء، وقد تُطمس بطول الإصرار، وقد يعتاد الإنسان الكذب على نفسه حتى يلتبس عليه كثير من أمره، لكن الآية تبقى كاشفةً لأصلٍ عظيم: هناك في أعماقك منطقة تعرف فيها ما لا تحتاج إلى أحد كي يشرحه لك؛ تعرف متى كنت صادقًا ومتى تلاعبت، ومتى أردت الحق ومتى أردت أن تنتصر، ومتى أعطيت لله ومتى أعطيت لصورتك عند الناس.

ولهذا تأتي بعدها مباشرةً الآية التي تكمل الصورة: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾. إنه مشهد إنسان يلقي الأعذار كما يلقي المسافر أحماله، عذرًا بعد عذر، حتى يكاد يصنع حول نفسه جبلًا من الكلمات، لكن كل هذا لا يغيّر الحقيقة التي يعرفها في الداخل. وما أبدع لفظ ﴿أَلْقَى﴾؛ فكأن المعاذير أشياء جاهزة يحملها الإنسان ثم يقذف بها أمام الحقيقة، مرةً يقول: الظروف كانت أقوى مني، ومرةً يقول: الجميع يفعلون ذلك، ومرةً يقول: لم أقصد، ومرةً يقول: اضطررت، ومرةً يجعل إساءة غيره تبريرًا لإساءته، ومرةً يضع الماضي كله مسؤولًا عن حاضره حتى يبرئ نفسه من أي قدرة على الاختيار.

ولا يعني ذلك أن الأعذار كلها باطلة، فالشرع يعرف الإكراه والعجز والنسيان والجهل المعتبر وأحوال الضرورة، والله أعدل وأرحم من أن يؤاخذ عبدًا بما لا يطيق أو بما لم يتعمد على الوجه الذي لا تبعة فيه، ولكن الآية تتحدث عن تلك المعاذير التي يلقيها الإنسان وهو

بصير بنفسه؛ أي حين يعرف في قرارة قلبه أن ما يقوله ليس الحقيقة كاملة، وإنما رواية محسنة ليهرب بها من مواجهة مسؤوليته. وهنا تكمن دقة القرآن: فهو لا يحرم الإنسان من عذره الحقيقي، لكنه يمنعه من تحويل العذر إلى صناعة نفسية مستمرة تقتات عليها الغفلة.

وللأعذار قدرةٌ غريبة على منح النفس راحةً قصيرة، لكنها راحة مؤذية؛ لأنها تسكن الألم من غير أن تعالج المرض. حين يبرر الإنسان خطأه بدل أن يتوب منه، قد يشعر لحظات بأنه خفف الضغط عن ضميره، لكنه في الحقيقة حرم نفسه من فرصة الإصلاح؛ وحين يقول: أنا هكذا بسبب ما فعله الآخرون بي، قد يكون في كلامه شيء من الحقيقة، لكنه إن جعل أذى الآخرين تصريحًا مفتوحًا لأذاه، فقد سلّم لهم مستقبله بعد أن آذوه في ماضيه. والقرآن يريد للإنسان أن يعترف بتأثير الظروف من غير أن يعبدها، وأن يعرف جراحه من غير أن يجعلها قدرًا أخلاقيًا يبرر به كل ما يصدر عنه.

إن التوبة تبدأ من سقوط المعاذير، لا بمعنى قسوة الإنسان على نفسه، وإنما بمعنى أن ينظر إلى فعله كما هو، ثم يقول لله ما قاله أبو البشر آدم وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، وما قاله يونس عليه السلام في ظلمات البحر: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ إذ لا تنهض الروح إلى الله وهي مشغولة بإقامة المرافعات عن نفسها. إن الاعتراف ليس إهانة للنفس، بل تحرير لها من عبء التمثيل؛ لأن الإنسان حين يتوقف عن الدفاع عن خطئه يستطيع أخيرًا أن يتركه، أما ما دام مشغولًا بإثبات أنه لم يخطئ فإنه سيظل أسير الخطأ، لأن التوبة عن شيءٍ لا بد أن تبدأ من تسميته باسمه.

وهذه الآيات الثلاث تبني في المؤمن خلقًا نادرًا: الصدق الداخلي؛ ألا يعيش بصورةٍ مزدوجة، وجه يعرضه للناس ووجه يعرفه وحده، ولا يكتفي بتجميل ظاهره بينما يترك

باطنه يتآكل. والصدق الداخلي ليس أن يفضح الإنسان نفسه للناس، فالستر نعمة، وليس المطلوب أن يروي ذنوبه للعالم، وإنما المطلوب أن لا يجعل ستر الله ستارًا بينه وبين نفسه. تستطيع أن تستر ذنبك عن الخلق وتبكي عليه بينك وبين الله، وتستطيع أن تخفي تقصيرك عن الناس لكن لا تخفه عن ضميرك، وحينها يكون الستر طريقًا إلى الإصلاح لا وسيلة إلى الاستمرار.

ومن أعظم المصائب أن يصبح الإنسان خبيرًا في اكتشاف تبريرات الآخرين عاجزًا عن اكتشاف تبريراته، يقرأ كل كلمة تصدر عن خصمه قراءةً نفسية دقيقة، ثم يعجز عن أن يرى الهوى حين يتحرك في قلبه هو. سورة القيامة تقلب هذه العادة؛ لا تبدأ بخصمك، ابدأ بنفسك، لأنك لن تُسأل أولًا عن أسرار غيرك، بل عن سرك أنت، ولن تنفعك عبقرية تحليل المجتمع إذا جهلت دوافعك، ولن يشفع لك أنك رأيت أخطاء العالم كله إذا كنت أعمى عن الخطأ الذي يسكن بين ضلوعك.

ولعل هذا هو الوجه الباطني الأعظم لفكرة القيامة: أنها اليوم الذي يستحيل فيه أن يدير الإنسان صورته، في الدنيا يستطيع أن يختار زاوية الكاميرا، أما هناك فالحقيقة تُعرض من كل الجهات، ويأتي الإنسان بما قدّم وأخّر، وتتكلم الجوارح، وتشهد الأرض، وتظهر الصحائف، فلا يبقى من الشخصية التي صنعها الإنسان للناس إلا ما وافق الحقيقة. ومن هنا فإن أذكى ما يفعله المرء في الدنيا أن يختصر الطريق، وأن يصالح صورته مع حقيقته، وأن يصبح في السر قريبًا مما يحب أن يراه الناس في العلن؛ لأن الفجوة بين الظاهر والباطن كلما اتسعت احتاج الإنسان إلى أكاذيب أكثر كي يحافظ عليها، حتى يتحول العمر كله إلى مجهودٍ شاق في إدارة قناع.

إن قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ يحرر المؤمن كذلك من الانشغال المرضي بمحاكمة الناس له؛ فما دمت تعرف من نفسك صدقًا تشهد به أمام الله، فلا يضرك كل سوء فهم كما يتخيل الخائفون من الناس، وما دمت تعرف في نفسك باطلًا فلا تنفعك كل شهادة مدحٍ يرفعها الآخرون. هناك لحظة نضج روحي يتوقف عندها الإنسان عن سؤال: كيف أبدو؟ ويبدأ بسؤال: كيف أنا عند الله؟ وحين يبلغ هذا المقام تخف عبوديته للسمعة، فلا يجعله الذم ينهار إذا كان بريئًا، ولا يجعله المدح ينام عن عيبه إذا كان مذنبًا.

وهكذا تضعنا هذه الآيات أمام محكمةٍ لا تحتاج في أصلها إلى شهود من الخارج؛ لأن في الداخل شاهدًا، وفي الوحي ميزانًا، وفي علم الله إحاطةً لا يضيع معها شيء. وما دام زمن العمل باقيًا، فإن هذه البصيرة نعمة؛ تستطيع أن تجعل منها بداية التصحيح، فتردّ حقًا، وتعتذر عن أذى، وتراجع نية، وتغلق باب شر، وتفتح باب خير، وتمحو أثرًا قبل أن يستقل عنك ويمشي بعد موتك. أما يوم القيامة فإن المعرفة نفسها لن تعود فرصةً للتغيير، بل تصبح مشاهدةً لما كان ينبغي أن يُغيَّر.

من هنا يفهم المؤمن أن أعظم الشجاعة ليست أن تنتصر في جدال، بل أن تقول لنفسك حين تخطئ: أخطأت، وأن تملك من الصدق ما يمنعك من تلبيس الهوى ثوب الحكمة، ومن الإيمان ما يجعلك ترى الاعتراف بالله بابًا للكرامة لا سقوطًا منها. فإن الإنسان كلما اقترب من الله خفّت حاجته إلى الأعذار، لأنه يعلم أن الله لا يطلب منه أن يكون بلا ضعف، وإنما أن يكون صادقًا في الرجوع؛ وما أقسى أن يعيش المرء حياته كلها يدافع عن نفسه ثم يقف في اليوم الذي لا تنفع فيه دفاعاته، وما أجمل أن يقف اليوم بين يدي ربه منكسرًا بالاعتراف، فيلقى غدًا ربًا سبق عفوه ذنبه ورحمته اعتذاره.

الفصل الرابع

حين يُعلِّم الله قلب نبيّه كيف يحمل الوحي

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

وفجأة، في قلب المشهد الأخروي المزلزل، تنتقل السورة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتلقى القرآن، فتجيء الآيات الأربع كأفذة من نورٍ صافٍ بين مشاهد القيامة والنفس والحساب: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾. وقد يبدو للقارئ في الوهلة الأولى أن السياق انقطع، لكنه إذا تأمل رأى أن القرآن لا يخرج من موضوع إلى آخر على غير هدى؛ فالسورة التي تتحدث عن اليقين الذي سيواجهه الإنسان يوم القيامة، تتوقف لحظةً عند الطريق الذي جاءنا به هذا اليقين: الوحي، وكأنها تقول إن خبر اليوم الذي سيُنبَّأ فيه الإنسان بأعماله لم يأتكم من تخمين البشر، بل من كلام تكفل الله بجمعه وقراءته وبيانه.

كان النبي صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على حفظ الوحي، وخوفه أن يفوته منه شيء، يحرك لسانه مع جبريل بالعَجَلة، فجاء التطمين الإلهي: لا تحمل عبء حفظ ما تكفّلنا نحن بحفظه في صدرك، ولا تجعل شدة الحرص تحجب عنك مقام التلقي، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾. وما أعظمها من تربية؛ إن أشرف قلبٍ تلقى كلام الله تعلّم أن بعض مقامات المعرفة تحتاج إلى السكون قبل الحركة، وإلى الثقة قبل الاستعجال، وإلى أن يتلقى الإنسان الحقيقة في عمق قبل أن يسرع إلى ترديدها بلسانه.

وفي الآيات معنى تربوي يتجاوز سبب النزول من غير أن يخرجه عن سياقه: كم نخسر من المعاني لأننا نتعجلها، نقرأ قبل أن نصغي، ونتكلم قبل أن نفهم، ونجيب قبل أن يكتمل السؤال، ونريد أن نمتلك النص قبل أن يمتلك النص قلوبنا. والقرآن هنا يربّي أول متلقٍ له على أدب التلقي: اسمع، وثق، ثم اتبع، ثم يأتي البيان. إن المعرفة الإيمانية ليست سباقًا في كثرة المحفوظ، وإنما علاقة بين القلب والكلام الإلهي؛ قد يحفظ الإنسان صفحات ولا يتغير، وقد تستقر آية واحدة في قلبه فتغير هندسة حياته كلها.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ تحمل من الطمأنينة ما يليق بعظمة القرآن، فالكتاب الذي نقرأه ليس نصًا تُرك لقلق النبي صلى الله عليه وسلم كي يحفظه بقوته وحده، وإنما تكفل الله بجمعه في صدره وقراءته عليه، ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾. كأن الحفظ والقراءة والبيان كلها محاطة بعناية الله؛ ومن هنا تنشأ في القلب هيبة هذا الكلام، لا لأنه أقدم نص بين أيدينا، ولا لأنه تراث أمة فحسب، بل لأنه كلام رب العالمين الذي تولّى حفظه وبيانه وإبلاغه.

والترتيب في الآيات بالغ الجمال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾؛ لم يقل: فإذا قرأناه فكرره فحسب، بل جعل التلقي تابعًا للقراءة الإلهية التي يأتي بها الملك، ثم يكون الاتباع في تلقيه وضبطه، ومن وراء ذلك يظل لفظ «فاتبع» مشعًا بإيحاء مناسب لطبيعة القرآن كلها؛ فالقرآن لم ينزل ليُعجب بصوته وحده، وإنما ليُتّبع. وما أيسر أن يتحول القرآن في حياة بعض الناس إلى تلاوة تحرك اللسان ولا تعيد ترتيب المواقف، بينما السورة التي تتحدث عن القيامة تذكرنا أن الذي سينفع هناك ليس مجرد مرور الألفاظ على أفواهنا، بل مقدار ما انتقل منها إلى أعمالنا وضمائرنا.

ثم قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ يضع العقل المؤمن في حالة اتزان بين الاجتهاد والتواضع؛ فالقرآن كتاب مبين، والله هو الذي تولى بيانه بما أقامه في كلامه، وبما بيّنه رسولُه صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز أن يتحول التدبر إلى انفلاتٍ من لسان العرب وسياق الآيات وهدي الوحي، ولا أن يصبح النص مرآةً نلقي عليها خواطرنا ثم نزعم أنها مراد الله. التدبر الحق يبدأ من احترام المعنى قبل توسيع أثره، ومن فهم الدلالة قبل بناء التأمل عليها، لأن جمال الخاطرة لا يجعلها تفسيرًا إذا خالفت النص، وروعة العبارة لا تعطي صاحبها حق أن ينسب إلى الله ما لم يدل عليه كلامه.

ولهذا نحن في هذه الرحلة لا نبحث عن أسرار غامضة تختبئ وراء الألفاظ كما لو كان القرآن ألغازًا، بل نبحث عن نور المعنى حين يدخل الحياة؛ فما قاله الله عن النفس اللوامة نراه في ذواتنا، وما قاله عن حب العاجلة نراه في اختياراتنا، وما قاله عن المساق نراه في نهايات البشر، وما قاله عن البعث نراه متسقًا مع قدرته التي يشهد بها الخلق الأول. إن التدبر ليس اختراع معنى جديد، وإنما اكتشاف اتساع المعنى الصحيح حين يلامس طبقات النفس والواقع.

ومن بديع موقع هذه الآيات أن الإنسان قبلها كان ﴿عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾، لكنه مع ذلك يحتاج إلى الوحي؛ فبصيرة النفس لا تكفي وحدها لهداية الإنسان هدايةً كاملة، لأن النفس قد تعرف أنها أخطأت لكنها لا تعرف وحدها كل الحق، وقد تشعر بالذنب لكنها تحتاج إلى ميزان من خارجها يحدد لها ما هو الذنب وما هو الهدى. الضمير نور، لكنه ليس وحيًا؛ والعقل نعمة، لكنه ليس معصومًا؛ والتجربة مدرسة، لكنها لا تخبرنا وحدها عن الغيب. ولذلك جاء القرآن ليكون النور الذي يهدي البصيرة، والميزان الذي يصحح العقل، والخبر الصادق عن العالم الذي لا تصل إليه الحواس.

وما أحوج الإنسان إلى هذا المعنى في زمن صار فيه كل أحد قادرًا على إنتاج «معناه الخاص» للحياة، حتى ظن بعض الناس أن الحقيقة تتشكل بحسب الشعور، وأن الصواب ما يريح النفس، وأن الإنسان يستطيع أن يكون مشرعًا لنفسه لمجرد أنه يملك رغبة قوية. سورة القيامة تحطم هذا الوهم من جهتين: هناك رب إليه المستقر، وهناك وحي تكفل الله بجمعه وبيانه؛ فلا الإنسان سيد المصير، ولا هو صاحب الكلمة النهائية في معنى الخير والشر.

ثم في النهي عن العجلة رفقٌ نبوي عظيم؛ لم يكن استعجال النبي صلى الله عليه وسلم لهوًا، بل كان من شدة حرصه على الوحي، ومع ذلك يُعلّمه ربه أن النية الصالحة لا تجعل كل طريقة صحيحة، وأن المحبة نفسها تحتاج إلى أدب، وأن الحرص إذا تجاوز موضعه احتاج إلى تهذيب. وفي هذا تربية لكل صاحب رسالة: لا تجعل خوفك على الحق يدفعك إلى أسلوب يضر بالحق، ولا تجعل حرصك على الناس يخرجك من مقام الحكمة، ولا تجعل شدة رغبتك في الإنجاز تسلبك جودة التلقي؛ فالطريق إلى المعاني الكبيرة لا يُختصر دائمًا بالعجلة.

إن القرآن نفسه الذي يقول لك إن يوم القيامة آتٍ، وإن الإنسان سيواجه سيرته، وإن العظام ستُجمع، هو كلام جاء في حفظٍ إلهي وتلقٍ نبوي وبيان رباني؛ ولذلك فإن أعظم ما يهيئ الإنسان للقيامة أن يجعل بينه وبين هذا الكتاب علاقةً تتجاوز الموسمية. أن لا يفتح المصحف فقط عند المصيبة، ولا يستدعي الآيات لتزيين ما قرره مسبقًا، بل يجلس بين يديها كما جلس المتلقي الأول: مستمعًا، متواضعًا، مستعدًا لأن تتغير به لا أن يغيرها لتوافق هواه.

وحين تضع السورة هذا المقطع بين حديثها عن بصيرة الإنسان وحديثها الآتي عن حب العاجلة، فكأن الوحي هو الميزان الفاصل بين ما تعرفه النفس وما تشتهيه؛ النفس تعرف شيئًا

من حقيقتها، لكن العاجلة تجذبها، فيأتي القرآن ليعيد البوصلة إلى اتجاهها. وما أكثر ما نحتاج إلى الوحي لا لأننا نجهل الخير جهلًا كاملًا، بل لأن شهواتنا تجعل المعروف ثقيلًا والمنكر جميلًا، فنحتاج إلى كلام الله كي يغسل أسماء الأشياء من طلاء الهوى، فيسمّي العاجلة عاجلةً ولو بدت ساحرة، ويسمّي الآخرة آخرةً ولو غابت عن العين، ويجعل القريب الحسي صغيرًا أمام البعيد الأبدي.

ومن هنا يتهيأ السياق للضربة التالية، تلك الجملة القصيرة في ألفاظها، الهائلة في كشفها للنفس: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، وكأن السورة بعد أن أثبتت القيامة، وكشفت بصيرة النفس، وذكرت حفظ الوحي وبيانه، ستدخل الآن إلى الجذر الذي يجعل الإنسان مع كل هذه الأنوار يعرض: إنه لا يجهل الآخرة دائمًا، لكنه يحب شيئًا أقرب منها، والعاطفة حين تستبد بالقلب تستطيع أن تجعل المعلوم غائبًا، والحاضر الصغير أضخم في الحس من الأبد كله.

الفصل الخامس

مأساة العاجلة ووجوه اللقاء

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾

بعد أن أقامت السورة دليل البعث، وهدمت وهم المفر، وكشفت الإنسان أمام نفسه، وأثبتت أن الوحي الذي يخبره بمصيره محفوظٌ مجموعٌ مبيَّن، لا تتركه يختبئ وراء نقص البرهان، بل تنتقل إلى الجذر الأخطر، إلى ذلك الدافع الخفي الذي يستطيع أن يبطل في النفس أثر عشرات الحجج الواضحة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾. ليست المشكلة إذن دائمًا في أن الإنسان لم يعرف، بل في أنه أحبّ؛ وكثيرٌ من معارك الهداية لا تدور في ساحة العقل وحده، بل في ساحة الحب، لأن العقل قد يرى الطريق ثم تأتي الرغبة فتجرّ صاحبه إلى غيره، وقد يوقن المرء أن أمرًا يضره ثم يندفع إليه لأنه قريب لذيذ، ويوقن أن خيرًا عظيمًا ينتظره ثم يزهد فيه لأنه مؤجل، وكأن الحواس قد فرضت على الإنسان طغيان الحاضر حتى صار ما يراه الآن أحق في شعوره مما يعلمه عن غده.

ووصف الدنيا بـ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ من أعجب الأوصاف القرآنية؛ فهو لا يذم الخلق الذي خلقه الله، ولا ينفي ما في الدنيا من جمالٍ ورزق وعمران ومتاع مباح، وإنما يكشف طبيعتها الزمنية: إنها عاجلة، سريعة الانقضاء، تصل قبل غيرها إلى الحواس، ولذلك يسهل أن تخدع القلب بحضورها. نحن نحب ما يقع تحت اليد، وما تراه العين، وما يمكن أن نحصل عليه الآن، ولذلك يبدو المال الذي في الحساب أكثر إقناعًا من الأجر الذي وُعد به المؤمن،

ويبدو التصفيق الذي يسمعه المرء في اللحظة أبلغ في النفس من رضا الله الذي لا تراه العين، وتبدو لذة المعصية ساعةً أقرب من حساب قد يتأخر عقودًا؛ ومن هنا كان الإيمان بالآخرة تدريبًا عميقًا للإنسان على مقاومة استبداد القريب.

وليست «العاجلة» اسمًا للدنيا فقط، بل هي مرض في طريقة التفكير؛ أن تجعل قرب الشيء منك مقياسًا لقيمته، وأن تجعل تأخر الثمرة سببًا في الزهد فيها. الطفل يطلب الآن ولو أضرّ به الطلب غدًا، أما النضج فيبدأ حين يستطيع الإنسان أن يتنازل عن لذة حاضرة لمصلحة خير أكبر يأتي لاحقًا، والإيمان يبلغ بهذا النضج أقصى مداه حين يؤمن المرء بأن بعض ثمار أعماله الكبرى لن يراها هنا أصلًا، وأن عدلًا كثيرًا لن يكتمل على الأرض، وأن دموعًا سكبها في الخفاء ربما لا يعرف قيمتها إلا يوم الوقوف بين يدي الله. ولذلك فإن الإيمان بالآخرة ليس فكرةً هامشية في البناء الإسلامي، بل هو تحرير للإنسان من استبداد اللحظة.

﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾؛ لم يقل: تعرفونها، أو تعيشون فيها، بل ربط المسألة بالحب، لأن الحب هو الذي يعيد ترتيب الإدراك؛ ما نحبه نضخمه، وما لا نحبه نصغره، وما نحب أن يكون حقًا نبحث له عن البراهين، وما نكره أن يكون حقًا نكثر حوله الأسئلة. وقد يبلغ حب الدنيا بالإنسان أن لا ينكر الآخرة بلسانه، لكنه يفرغها من أثرها العملي؛ يصلي أحيانًا، ويؤمن نظريًا بالحساب، ثم إذا تعارض مالٌ عاجل مع أمانةٍ أخروية اختار المال، وإذا تعارض منصب مع ضمير قدّم المنصب، وإذا تعارض انتصار النفس مع العفو اختار ما يشبع جرحه الآن. وهكذا لا تكون ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ دائمًا تركًا عقديًا صريحًا، بل قد تكون تهميشًا عمليًا؛ أن تظل الآخرة موجودة في الكتب والخطب، لكنها غائبة عند اتخاذ القرار.

وما أبعد الفرق بين أن تؤمن بالآخرة لتخبر، وأن تعيشها كميزان، فالأول قد لا يغير شيئًا من اختياراتك، أما الثاني فيدخل إلى تفاصيل الحياة كلها. من عاش الآخرة ميزانًا يسأل قبل أن يتكلم: ماذا لو كانت هذه الكلمة آخر ما أقول؟ ويسأل قبل أن يظلم: هل أحتمل أن أقف بهذا الحق في عنقي؟ ويسأل حين يُمدح: هل صورتي عند الله تشبه صورتي في عيون الناس؟ ويسأل حين يخسر: أهذه خسارة نهائية أم جزء من امتحان قصير؟ وهكذا لا تسلبه الآخرة الحياة، بل تمنحه زاويةً أوسع لفهمها، فلا يتحول كل نجاح إلى انتفاخ، ولا كل فشل إلى هاوية.

ثم بعد تشخيص المرض تأتي السورة بالنتيجة في صورتها النهائية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾. بعد كل ذلك الرعب الكوني، وبعد برق البصر وخسوف القمر وسؤال المفر، يفتح القرآن نافذةً من الجمال لا تكاد تشبه ما قبلها، وجوهٌ ناضرة، قد امتلأت بهجة وحسنًا وإشراقًا، وكأن أعمال العمر كلها قد صعدت يومئذٍ إلى الوجه فأصبح مرآةً للمصير. والوجه في القرآن موضع ظهور الحال، فما كان مخبوءًا في القلب تظهر آثاره عليه، وما عاشته النفس في طريقها الطويل يجد يومئذٍ صورته النهائية، فإذا بالوجه الذي أرهقته الدنيا بالسجود والصبر ومجاهدة الهوى والنهوض بعد العثرة يصبح في يوم الخوف العظيم أكثر الأشياء نضرة.

ثم تبلغ الآية منتهى الكرامة: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وهي من أعظم آيات الرجاء والنعيم، إذ يثبت أهل السنة للمؤمنين رؤية ربهم في الآخرة كما جاء بها الوحي، رؤيةً تليق بجلال الله سبحانه، من غير تكييف ولا تمثيل ولا إحاطة، فهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وهنا ترتفع الجنة من كونها أنهارًا وظلالًا ونعيمًا إلى أعلى أفقها: أن يبلغ العبد مقام الكرامة فيرى ربَّه الذي آمن به ولم يره في الدنيا، ودعاه في الليل، ورجاه في الخفاء، وبكى بين يديه، وصبر

لأجله، وترك محبوبًا خوفًا منه، وأطاع أمره في أيامٍ لم يكن فيها بينه وبين الغيب إلا يقين القلب وخبر الوحي.

يا لها من نهاية تعيد تفسير كل شيء؛ كم يبدو صبر الدنيا صغيرًا إذا قورن بهذه اللحظة، وكم تبدو شهوةٌ تُركت لله زهيدة، وكم يصبح ألم الطاعة الذي شقّ على النفس ثم مضى خفيفًا، إذا كانت الطريق تنتهي إلى هذا الشرف. إن الإنسان الذي يعيش للعاجلة يرى الحرمان في كل شيء لا يأخذه الآن، أما المؤمن الذي يعرف إلى أي كرامة يمضي فإنه يرى بعض الحرمان ادخارًا، وبعض التأخير رحمةً، وبعض المنع إعدادًا للقاء أكبر من كل ما خسره.

ولفظ ﴿نَاضِرَةٌ﴾ قبل ﴿نَاظِرَةٌ﴾ يحمل موسيقى من المعنى قبل موسيقى اللفظ؛ نضرة في الوجه، ثم نظر إلى الرب، وكأن النضرة قد جاءت من الكرامة التي تنتظرها. والوجه الذي طالما توجه إلى الله في الصلاة، وسقط على الأرض ساجدًا، ورفع إلى السماء داعيًا، وأعرض عن مواطن الحرام حياءً من الله، يجد يومئذ ثمرة الاتجاه كله؛ فمن جعل وجهته في الدنيا إلى ربه، لم تكن نهاية الطريق إلا مزيدًا من القرب والكرامة.

ثم تأتي الصورة المقابلة: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾. البسور انقباضٌ وعبوس وشدة، وليس الخوف هنا خوف المجهول فحسب، بل خوف من بدأ يعرف ما ينتظره. الفرق بين الفريقين ليس أن أحدهما عاش في عالم والآخر في عالم آخر، بل عاشا الأرض نفسها، ومرّا بالوقت نفسه، وسمعا عن الموت نفسه، وربما التقيا في سوق واحد ومدينة واحدة، لكن أحدهما جعل العاجلة طريقًا إلى الآخرة، والآخر جعل العاجلة بديلًا عنها، حتى جاء اليوم الذي تحولت فيه الاختيارات الخفية إلى ملامح ظاهرة على الوجوه.

﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، و«فَاقِرَةٌ» هنا ليست من الفاقة بمعنى فقر المال، وإنما هي الداهية التي تكسر فقار الظهر من شدتها، وكأن الوجه قد فهم قبل وقوع العذاب ضخامة المصير. إن الإنسان في الدنيا يخاف من كارثةٍ ماليةٍ، أو سقوط مكانة، أو مرض، أو فقد قريب، وكلها مصائب ثقيلة، لكن السورة تضع أمامه مصيبةً يتضاءل أمامها كل ما كان يسميه كارثة؛ أن يخسر الإنسان نفسه في اليوم الذي لا تعاد فيه التجربة، وأن يصل إلى نهاية الرحلة ثم يكتشف أن الطريق كله كان في الاتجاه الخطأ.

والمشهد هنا لا يريد فقط أن يخيف، بل أن يصحح مفهوم النجاح؛ فالوجوه الناضرة ربما كانت في الدنيا وجوه أناس لم يملكوا الشهرة ولا المال ولا السلطة، وربما حملت التعب وذاقت المرض والفقد وضيق العيش، والوجوه الباسرة ربما كانت وجوهًا اعتاد الناس أن يروها على شاشات المدح وفي مقاعد الصدارة، لكن القيامة يوم انقلاب المعايير؛ لا تسأل من كنت بين الناس، بل ماذا كنت عند الله. هناك تُردّ الأسماء إلى حقائقها، فيظهر أن بعض ما سميناه فوزًا كان خسارةً مؤجلة، وأن بعض ما سميناه حرمانًا كان نجاةً مؤجلة.

وهذه الآيات تضع المؤمن أمام تربية شديدة الدقة: لا تجعل قلبك يحتقر الحاضر، ولا تجعله يعبده؛ خذ من الدنيا ما أباح الله، اعمرها، ابتسم فيها، أحب أهلك، ابنِ، اكتب، اعمل، ازرع، وتعلم، لكن افعل كل ذلك وأنت تعرف أنها «العاجلة»، فلا تطلب منها وظيفةً لم تُخلق لها، ولا تنتظر منها خلودًا، ولا تجعلها المعيار النهائي لقيمة حياتك. إن من يفهم العاجلة يستطيع أن يستمتع بها دون أن يستعبد لها، وأن يحزن لفقدها دون أن يتحطم، لأنها لم تعد وطنه الأخير.

ولعل أقسى صور «ترك الآخرة» أن ينساها الإنسان لا لأنه ينكرها، بل لأن الأشياء الصغيرة تملأ مجال رؤيته؛ رسالة هاتف، خصومة، صفقة، مدح، غيرة، متابعة، منافسة، ثم ينقضي يوم كامل لم يخطر فيه على قلبه أنه راحل. تتكاثر التفاصيل حتى تحجب السؤال الكبير، ويصبح الإنسان أسيرًا لما هو عاجل ليس لأنه أعظم، بل لأنه أكثر ضجيجًا. وسورة القيامة تدخل هذا الضجيج بكلمة: ﴿كَلَّا﴾، كأنها تقطع السيل فجأة وتقول: انتبه؛ ليست المشكلة أن حياتك مليئة بالأشياء، بل أن الأشياء أخذت موضع المصير.

إن أجمل توازن تصنعه هذه الآيات أن المؤمن لا يعيش مرعوبًا من الآخرة وحدها، بل مشتاقًا إليها أيضًا؛ ففيها وجوه ناضرة، وفيها كرامة النظر إلى الرب، وفيها انتهاء التعب، وانكشاف عدل الله، ولقاء ما وُعد به الصابرون. الخوف وحده قد يرهق الروح، والرجاء وحده قد يخدرها، أما القرآن فيجمع بينهما؛ يريك الوجوه الباسرة كي لا تأمن، ويريك الوجوه الناضرة كي لا تيأس، فينشأ القلب بين رهبة تدفعه، ومحبة تجذبه.

وهكذا يصبح السؤال الحقيقي ليس: هل أحب الدنيا؟ فحب ما أحل الله من نعمها فطرة لا جناح فيها، وإنما: هل أحبها حتى أترك لأجلها الآخرة؟ هل أختارها حين تتعارض مع رضا الله؟ هل أسمح لما هو سريع الزوال أن ينتزع مني ما هو أبدي؟ هنا يظهر الفرق بين من يملك الدنيا ومن تملكه الدنيا؛ قد يكون الإنسان غنيًا وقلبه حر، وقد يكون فقيرًا وقلبه عبدًا لما لا يملك، فالمسألة ليست في مقدار ما في اليد، بل في مقدار ما استولى على القلب.

ومن هذه المقابلة بين الوجوه ينتقل القرآن بنا الآن إلى آخر حدود الجسد نفسه؛ فما دام أصل المرض حب العاجلة، فلا بد أن نرى اللحظة التي تنتهي فيها العاجلة قسرًا، حين لا يعود الإنسان قادرًا أن يقول: غدًا، ولا أن يضيف يومًا جديدًا إلى مشروعه، ولا أن يمدّ

خيطًا آخر في الدنيا؛ إنها لحظة بلوغ الروح التراقي، حين تبدأ الأشياء التي أحبها بالابتعاد عنه دفعةً واحدة، ويعلم يقينًا أن الفراق قد حل.

الفصل السادس

حين تبلغ الروح التراقي وتنطفئ سلطة الإنسان على أيامه

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۞ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۞ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۞ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾

إذا كانت الآيات السابقة قد كشفت مأساة حب العاجلة، فإن هذه الآيات تأخذنا إلى اللحظة التي تنتهي فيها العاجلة من جهة الإنسان نفسه، لا بقيام الكون كله، بل بقيامته الشخصية، بالموت الذي يجعل العالم مستمراً من حوله بينما ينتهي نصيبه هو منه. ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾، لا يذكر القرآن الروح صراحةً لأن السياق قد أحضرها بقوة، فإذا بلغ خروجها موضع التراقي، وهي عظام أعلى الصدر عند أصل العنق، صار الجسد الذي أمضى الإنسان عمره يسكنه كأنه بيته الأخير موضع وداع. ما كان يتحرك بإرادته يبدأ بالخروج من سلطان الإرادة، وما كان يأمره الإنسان فيستجيب لا يعود يستجيب كما كان، وتتراجع سلطة صاحب الجسد على جسده حتى يكتشف في اللحظة الأخيرة حقيقةً كانت ملازمةً له منذ الولادة: أنه لم يكن مالكًا لنفسه ملكًا مطلقًا.

الموت عجيب، لا يأتي إلى الإنسان بمعلومة جديدة تمامًا، فكل إنسان يعرف أنه سيموت، لكنه يحوّل المعرفة إلى يقين من نوعٍ آخر. هناك فرق شاسع بين أن تقول: كل نفس ذائقة الموت، وبين أن تعرف في لحظة بعينها أن نفسك أنت هي التي تذوقه الآن. في الدنيا يستطيع الإنسان أن يتحدث عن الموت بهدوء لأنه ما زال واقفًا على شاطئه، فإذا اقتربت الموجة تغير

معنى الكلام كله، المواعظ التي سمعها، والجنائز التي شيعها، والآيات التي قرأها، والوجوه التي ودعها، تتجمع في لحظةٍ واحدة، ويغدو ما كان خبرًا مصيرًا.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾؛ يا لها من كلمة تفيض بالعجز البشري، إذ يبحث المحيطون بالمحتضر عمن يرقيه أو يداويه أو ينقذه مما نزل به، وكأن كل ما راكمه الإنسان من معرفة وقوة يواجه فجأة حدًا لا يستطيع تجاوزه. ولا يعني هذا ازدراء الطب أو ترك التداوي، بل القرآن نفسه لا يلغي الأخذ بالأسباب، غير أن الموت يكشف حدود الأسباب؛ فالطبيب يعالج، لكنه لا يملك الأجل، والدواء ينفع بإذن الله، لكنه لا يكتب الخلود، والمستشفى قد يؤخر بعض الأسباب ولا يستطيع أن يلغي النهاية التي قدّرها الله.

وكم من إنسان ظل حياته يعتقد أن المال يحل كل مشكلة حتى وصل إلى مرض لا يشتري له المال يومًا واحدًا، وكم من ذي سلطان ظن أن أبواب الدنيا كلها تُفتح بأمره ثم وقف حراسه عند باب الموت لا يستطيعون الدخول معه، وكم من محبوب أحاط به أهله وأمسكوا يديه وهم يعلمون أن الحب نفسه، على عظمته، لا يملك أن يبقي الروح في الجسد. هنا تتجرد الإنسانية من غرورها، فلا تبقى المسألة فقيرًا وغنيًا، مشهورًا ومغمورًا، قويًا وضعيفًا، يصبح الجميع أبناء هذه الحقيقة الواحدة: أن الإنسان إذا جاء أجله لا يستطيع أحد أن يمد في كتابه سطرًا لم يأذن الله به.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾، والظن هنا يقين أو مقاربته في هذا المقام، وقد وصلت الحقيقة إلى الداخل: إنه الفراق. كلمة واحدة تجمع كل ما في الموت من وجع؛ فراق الجسد لما ألف، وفراق الإنسان لأهله، وبيته، وماله، ومكانه، وصوته بين الناس، وأشيائه الصغيرة التي ظن لسنوات أنها جزء منه. الموت ليس فقط توقف القلب، بل انفصال الإنسان عن شبكة

كاملة من العلاقات التي صنع فيها هويته الأرضية، ولهذا كانت سكرة الرحيل شديدة؛ لأن الإنسان لا يترك شيئًا واحدًا، بل يترك عالمًا كاملًا.

وما أدق اختيار كلمة ﴿الْفِرَاقُ﴾؛ إن الدنيا كلها في جوهرها لقاءات يعقبها فراق. نولد فنلتقي بالوجوه، تكبر الدائرة، أصدقاء، أحبة، أهل، أماكن، كتب، عادات، ثم يبدأ الزمن في أخذ ما أعطى، واحدًا بعد واحد، حتى يأتي الدور على الإنسان نفسه. وكل فراق في الدنيا كان تدريبًا صغيرًا على الفراق الأكبر؛ كل جنازة تقول لنا سرًا: ستأتي لحظة لا تكون فيها أنت المشيع بل المشيَّع، ولا تكون أنت الذي يعود من المقبرة بل الذي يبقى فيها.

غير أن المؤمن لا يرى الفراق نهايةً مطلقة؛ فالموت في التصور القرآني انتقال لا فناء. وهنا تظهر رحمة الإيمان بالآخرة؛ فإنه لا يلغي الحزن، لكنه يمنعه من التحول إلى عبث. إذا مات الحبيب لم تقل العقيدة للمحب: لا تتألم، وإنما قالت له: الألم ليس الكلمة الأخيرة. هناك بعث، وحساب، وجنة، ولقاء، ولذلك يستطيع المؤمن أن يبكي وهو يحمل في قلبه نافذة على المستقبل، وأن يشعر بثقل القبر من دون أن يراه نهاية الوجود.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾؛ صورة مكثفة للشدائد التي تتلاحق عند الرحيل، وقد ذكر المفسرون فيها معاني من اجتماع شدة الدنيا بشدة الآخرة، أو التفاف الساقين عند الموت، والمشهد في جميع دلالاته يحمل ضغط اللحظة التي تتجمع فيها الشدائد. ذاك الجسد الذي كان يمشي إلى الأسواق والمجالس والسفر، ويركض إلى مواعيده، أصبح الآن في مقامٍ آخر؛ لقد انتهى زمن المشي الذي يختاره، وبدأ «المساق» الذي لا اختيار فيه.

وهنا تأتي الآية التي تشبه قفلًا عظيمًا على الرحلة كلها: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾. سبق في السورة: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾، وها هو المعنى يعود بصورة أخرى: المستقر إلى الله،

والمساق إلى الله؛ فكأن حياة الإنسان كلها بين هاتين الكلمتين لا تعرف في حقيقتها وجهةً غيره سبحانه. قد يتجه المرء في الدنيا شرقًا أو غربًا، ويسافر بين المدن والقارات، ويغير أعماله وعلاقاته، لكنه على الخط الأعمق يسير نحو ربه منذ اللحظة التي وُلد فيها، وكل يوم ينقص من عمره ليس فقط يومًا مضى، بل خطوة في المساق.

والعجيب أن الآية تقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، لا «إلى الله» فقط، لتستحضر معنى الربوبية التي رافقت الإنسان منذ بدايته؛ إلى الذي ربّاك بنعمه، وحفظك وأنت جنين، وأجراك في مراحل العمر، وأطعمك حين لم تكن تملك لنفسك رزقًا، وسترك وأمهلك وأرسل إليك آياته، سيكون المساق. فما الموت خروجٌ من يد الله، بل رجوعٌ إلى حكمه؛ وما العبد إلا مسافر طال أو قصر سفره ثم عاد إلى من ابتدأ منه وجوده.

ولو دخل هذا المعنى القلب حقًا لتغيّرت علاقته بالموت؛ لن يصبح محبوبًا في ذاته، فالنفوس مجبولة على حب البقاء، لكن الموت لن يعود ذلك الوحش العبثي الذي يقتحم حياةً بلا معنى، بل بابًا قدره الله بين دارين. والخوف منه لا يزول تمامًا، لكنه يتحول من خوف الفناء إلى خوف اللقاء: بأي قلب نلقى الله؟ بأي حقوق؟ بأي أسرار؟ بأي صلاة؟ بأي مظالم؟ هنا يصبح التفكير في الموت أخلاقيًا لا سوداويًا؛ لا يسأل المؤمن متى أموت فقط، بل كيف أريد أن أصل إلى تلك اللحظة؟

وما أكثر ما يعلمه الموت لمن يتدبره دون أن يحتاج أن يموت؛ يعلمك أن كثيرًا مما تغضب له اليوم أصغر مما تظن، وأن الخصومات التي تلتهم قلبك لن تدخل معك القبر إلا بآثارها، وأن المال الذي تقضي العمر تجمعه سيقسمه بعدك من لم يتعب في جمعه، وأن الجسد الذي تنفق

من أجله كل اهتمامك سيعود إلى التراب، فلا تجعل المؤقت مركز كل العناية وتنسى الروح التي ستساق إلى ربها.

لكن سورة القيامة لا تستخدم الموت ذريعةً لازدراء الحياة؛ على العكس، الموت هو الذي يجعل الحياة ثمينة. لو كانت الأيام لا تنتهي لفقد كثير من الأشياء قيمتها، لكن لأنها محدودة يصبح الاعتذار الذي تؤجله خطراً، والبر الذي تستطيع فعله فرصة، والوقت الذي تمنحه لأهلك نعمةً قابلة للفقد، والصلاة التي أدركتها ثم أخرتها بلا سبب جزءًا من رأس مال لا يعود. إن تذكر الموت لا يعني أن تجلس منتظراً النهاية، بل أن تقوم إلى الحياة بجدية أكبر، لأنك تعرف أنها لن تُعاد.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ ينبغي أن تُسمع قبل ذلك اليوم، ونحن لا نزال قادرين على أن نختار شكل الفراق؛ فثمة من يترك وراءه حباً ودعاءً وذكراً حسناً وأثر خير، وثمة من يترك ديوناً من المظالم وجراحاً وأحقاداً وحقوقاً لم يؤدها. كل إنسان سيغادر، لكن ليس كل رحيل سواء؛ والسؤال ليس هل سنفارق، فهذا قد قُضي، بل ماذا سيبقى منا بعد الفراق، وماذا سنحمل معنا حين يبدأ المساق؟

وهنا تنكشف سخافة كثير من الغرور، من أنا حتى أتكبر، وأنا مخلوق تنتهي سلطة جسدي عليّ عند موضعٍ في الحلق؟ ما الذي يدفعني إلى ظلم إنسان لأجل منصبٍ سأفارقه، أو قطيعة رحم لأجل مالٍ سأتركه، أو تحقير ضعيف لأجل صورةٍ ستغيب؟ إن الموت أعظم معلم للتواضع، لأنه يضع نهايات الجبابرة والفقراء في أرض واحدة، ويقول للجميع بصمتٍ لا يحتاج إلى خطبة: كل ما لم يكن لله سينفصل عنكم.

ومع ذلك، فإن أعمق ما في قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ ليس الرهبة وحدها، بل استعادة المعنى؛ أنت لا تمضي إلى لا شيء، ولا تسقط في ظلمة بلا غاية، وإنما إلى ربك. وإذا كان هذا الرب هو الرحمن الرحيم، الذي فتح لك باب التوبة ما دامت الروح لم تبلغ الحلقوم، فكل خوف من النهاية ينبغي أن يتحول الآن إلى عمل، لا إلى يأس؛ فالذي يخاف أن يلقى الله بذنبه يستطيع اليوم أن يتوب، والذي يخاف حقًا لم يؤده يستطيع أن يؤديه، والذي يخاف قطيعة يستطيع أن يصل، والذي يخاف صحيفةً سوداء يستطيع أن يملأ بقيتها بالنور.

وهكذا يصل الإنسان في هذه الآيات إلى اللحظة التي تنتهي فيها سلطته على التأجيل؛ ذلك التأجيل الذي كشفته السورة من قبل في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾. لقد انتهى «أمامه» الآن، فلا مستقبل أرضي يمكن أن يقول فيه: سأتوب، سأصلح، سأعتذر، سأبدأ. وهذه واحدة من أعظم الروابط في نسيج السورة: الإنسان يريد أن يفتح أمامه زمنًا للفجور، ثم تأتي التراقي لتغلق أمامه الزمن كله. ومن لم يتعلم حدود «غدًا» في أيام الصحة، تعلّمها في ساعة لا ينفع فيها التعلم.

وسيعود القرآن بعد هذا المشهد إلى كشف السيرة التي أوصلت بعض الناس إلى هذا المساق المرعب؛ سيخبرنا أن النهاية لم تبدأ عند التراقي، وإنما بدأت منذ زمن بعيد حين اختار الإنسان ألا يصدق ولا يصلي، ثم كذب وتولى، ثم مضى إلى أهله يتمطى. فالقيامة لا تصنع المصائر من فراغ، والموت لا يفاجئ الإنسان بسيرة لم يعشها؛ إنه فقط يغلق باب التعديل، ويترك الحقيقة التي صنعها العمر تتقدم إلى موعدها الأخير.

الفصل السابع

حين تكشف النهايةُ تاريخَ الإعراض

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ۝ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ۝ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ۝ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾

بعد أن أوصلتنا السورة إلى لحظة الاحتضار، إلى الروح وهي تبلغ التراقي، وإلى الإنسان وقد علم أن الفراق قد نزل بساحته، وإلى الساق وقد التفت بالساق، ثم ختمت المشهد بذلك الإعلان الذي لا يترك للعمر منفذًا إلى التأجيل: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾، لا تنتقل مباشرةً إلى ما بعد الموت، بل تعود فجأةً إلى الوراء، إلى الحياة التي صنعت تلك النهاية، وكأنها تريد أن تقول لنا إن ساعة الاحتضار ليست حادثًا منفصلًا عن السيرة، وإن المساق الأخير لم يبدأ عند التراقي، بل بدأ منذ اللحظة التي اختار فيها الإنسان موقفه من الحق؛ فالنهاية ليست إلا الحقيقة التي كانت تُكتب بصمتٍ في كل يوم ثم أُعلن عنها حين انتهى زمن الكتابة. وهنا يأتي التشخيص في أربع كلمات متتابعة تكاد تختصر عمرًا كاملًا من الجفاء: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾؛ لم يكن الخلل حادثةً عابرة، ولا زلةً في الطريق أعقبها ندم، وإنما كان في أصل الصلة بالله: لا تصديق يملأ القلب، ولا صلاة تُترجم ذلك التصديق إلى عبودية، وكأن السورة تمسك الإنسان من باطنه وظاهره معًا؛ من اعتقاده الذي انطفأ، ومن سجوده الذي غاب، حتى تبدو حياته بلا محور يجمعها ولا قبلة تعيدها إلى أصلها.

وما أعمق اقتران التصديق بالصلاة؛ فالإيمان إذا استقر في القلب لا يحب أن يبقى فكرةً مجردةً لا أثر لها في الجوارح، والصلاة هي من أظهر الصور التي يتحول فيها التصديق من

معنى داخلي إلى هيئة وجودية كاملة: جسدٌ يقف، ووجهٌ يتجه، ولسانٌ يقرأ، وظهرٌ يركع، وجبهةٌ تهبط إلى الأرض، وقلبٌ يتعلم أنه ليس سيد نفسه. ولذلك لم تكن الصلاة في البناء القرآني حركةً منفصلة عن العقيدة، بل تدريبًا متكررًا على حقيقة العبودية؛ ففي كل يوم يتلقى الإنسان نداءً يقطع به اندماجه في العاجلة، ويعيده من الأسواق والمكاتب والبيوت والمواعيد إلى المقام الذي يختصر حقيقته كلها: عبدٌ بين يدي ربه. فإذا غابت الصلاة، أو صارت جسدًا بلا روح، فقد يفقد الإنسان واحدةً من أعظم وسائل مقاومة الوهم الذي تحدثت عنه السورة منذ بدايتها: وهم أنه مستقل، وأن وقته ملكه، وأن حياته لا سلطان فوقها.

والآية لا تقول فقط: «لم يصلِّ»، وإنما تسبقها بـ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾، لأن الصلاة التي يريدها القرآن ليست عادةً اجتماعية منفصلة عن يقين القلب، بل ثمرة تصديقٍ بالله وبلقائه ووعده ووعيده؛ ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف تقابل هذه الآية ما جاء في أول السورة، فقد كان الإنسان هناك يسأل: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾، لا طالبًا الاستعداد، بل مستبعدًا ومتحديًا، وهنا نرى ما فعله ذلك الاستبعاد في حياته: لم يصدق، فلم يصلِّ؛ وحين لا تكون الآخرة حقيقةً فاعلةً في الوعي، تصبح الصلاة ثقيلةً لأنها تقطع على النفس وهم الاستقلال، بينما من رأى كل سجدةٍ خطوةً نحو اللقاء، وكل ركعةٍ جوابًا عمليًا عن سؤال المصير، وجد فيها ما هو أبعد من مجرد التكليف.

ثم تقول السورة: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾؛ لم تترك الفراغ فارغًا، فحين غاب التصديق جاء التكذيب، وحين غابت الصلاة جاء التولي، وكأن الإنسان لا يبقى طويلًا في منطقة محايدة بين الاستجابة والإعراض؛ فالقلب إذا لم يتقدم نحو الحق قد يبدأ بالتراجع عنه، والتردد إذا طال قد يتحول إلى اختيار، والإعراض الذي يبدأ صغيرًا قد يصبح طريقة حياة. ولفظ

﴿تَوَلَّى﴾ يرسم حركةً كاملة: كانت أمامه آيات الله، لكنه أعطاها ظهره، كان النداء يأتيه، لكنه اختار وجهةً أخرى، كان الباب مفتوحًا، لكنه مضى بعيدًا عنه. وما أشد الفرق بين من يضعف وهو متجهٌ إلى الله، ومن يتولى وهو راضٍ عن البعد، الأول قد يتعثر ألف مرة ثم يعود، أما الثاني فقد جعل المشكلة في الاتجاه نفسه.

إن التكذيب في القرآن ليس دائمًا معركةً فكرية باردة بين حجة وحجة، بل قد يكون قرارًا أخلاقيًا كاملًا، لأن الاعتراف بالحق يطلب من الإنسان أن يعيد تشكيل حياته على أساسه، وبعض النفوس لا ترفض الحقيقة لأنها غامضة، بل لأنها مكلفة. من الأسهل أن تقول: لا حساب، من أن تقبل بأن شهواتك محكومة بميزان، ومن الأسهل أن تقنع نفسك بأنك لا تحتاج إلى توبة من أن تواجه بعض ما اقترفت، ومن الأسهل أن تتولى عن النور من أن تسمح له بأن يدخل الغرفة التي خبأت فيها ما لا تريد رؤيته. ولذلك فإن التكذيب والتولي توأمان في الآية: يرفض الإنسان الحقيقة في عقله كي يوسّع لهوى قلبه طريق الانصراف.

ثم تأتي حركة عجيبة في المشهد: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾. لو قيل إنه كذب وتولى لكان في المعنى ما يكفي لبيان الجرم، لكن القرآن يزيد تلك اللقطة البصرية التي تكشف النفس من طريقة مشيها، يذهب إلى أهله يتمطى، أي يمشي في اختيال وتبختر، وقد خرج من مواجهة الحق لا منكسرًا من خشية أن يكون مخطئًا، ولا مضطربًا من احتمال أن يكون الوحي صادقًا، بل ممتلئًا بنفسه، كأن إعراضه انتصار، وكأن قدرته على رفض الحق دليل قوة. وهنا تتحول الهيئة الخارجية إلى علامة على مرضٍ داخلي: ما أخطر أن يجتمع الجهل بالغرور، وأن يخرج الإنسان من موطن الحجة مزهوًا لا متسائلًا، وأن يرى في صلابة قلبه دليل ثبات بينما تكون تلك الصلابة نفسها أحد أسباب هلاكه.

والتمطي أبلغ من مجرد المشي؛ إنه جسد يتكلم بلغة الكبر، وكأن الإنسان قد امتلأ بذاته حتى ظهرت تلك الزيادة في مشيته. وفي هذا تذكير بأن الأخلاق لا تسكن القلب وحده؛ إنها تتسرب إلى الملامح، وإلى نبرة الصوت، وإلى طريقة الحديث عن الآخرين، وإلى مشية الإنسان في الأرض. ولذلك نهى القرآن في مواضع أخرى عن المرح والاختيال، لا لأن الإسلام يريد إنسانًا ذليل الهيئة، بل لأنه يريد كرامةً لا تستحيل إلى استعلاء، وثقةً لا تتحول إلى احتقار، وقوةً تعرف أنها موهوبة من الله فلا تنتفخ بها على خلقه.

وما أشد المفارقة بين ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ وبين ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾؛ هنا إنسان يمشي في الدنيا بإرادته متبخترًا، وهناك سيُساق إلى ربه لا يملك أن يحيد خطوةً عن المسار. لقد كان يظن أن قدميه له، وأن الطريق له، وأن وجهته يختارها كما يشاء، ثم يأتي اليوم الذي يتبين فيه أن حرية الحركة كانت جزءًا من الامتحان لا صكًّا بالاستقلال. وكلما قرأ الإنسان هاتين الآيتين معًا انكسر في قلبه شيء من الغرور؛ فما دام آخر السير مساقًا إلى الله، فكيف يتعالى المرء في الممر؟ وما دام الجسد الذي يتبختر اليوم سيُحمل غدًا، فما الذي يغريه بأن يجعل هيئته سلاحًا لإهانة الآخرين؟

ثم تأتي كلمات الوعيد الثقيلة: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، وقد ذكر أهل التفسير في معناها الوعيد والتهديد بقرب الهلاك والسوء، والتكرار هنا ليس حشوًا، بل إيقاعٌ متلاحق يشبه ضربات الإنذار الأخيرة على باب قلبٍ طال إعراضه؛ كأن السورة تقول: لقد اقترب منك ما كنت تستبعده، ودنا منك ما سخرت منه، وليس في الطريق الذي اخترته إلا ما يليق به من عاقبة. إن بعض الكلمات تحتاج إلى أن تتكرر لا لأن معناها لم يُفهم، بل لأن القلب لم ينتبه؛ كم من إنذار سمعه الإنسان مرةً فمرّ عليه، فإذا تكرر انكسر سور الألفة وبدأ يسمع.

وهنا تتبدى إحدى السنن النفسية المخيفة: أن الإنسان قد يعتاد التحذير حتى يفقد وقعه فيه. يسمع عن الموت فلا يتحرك، ويسمع آيات الحساب فتجري على أذنه كما تجري الأخبار، ويرى الجنائز حتى تصبح جزءًا من المشهد اليومي، ثم يظن أن عدم تأثره دليل صلابة، مع أن القلب ربما يكون قد خسر حساسيته. ولهذا تأتي ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ كأنها ترفض أن تسمح للمخاطب بالعبور السريع؛ تقف في طريقه مرةً بعد مرة حتى لا يخرج من السورة كما دخل.

وفي هذا المقطع درس بالغ الخطورة في علاقة الإنسان بالاعتياد؛ فليس أخطر على الروح من أن تألف المعصية، وأن يتحول ترك الصلاة من ألم إلى روتين، والكذب من سقطة إلى مهارة، والتولي من تردد إلى هوية، والكبر من حالة إلى طبيعة. الذنب الأول قد يبكي صاحبه، أما الذنب المئة فقد لا يشعر به، لا لأنه صار أصغر، بل لأن القلب هو الذي صار أقل حساسية. ومن هنا كانت التوبة في حقيقتها مقاومةً لقانون الاعتياد؛ أن تكسر سلسلةً بدأت تتشكل، وأن ترفض أن يصبح الباطل مألوفًا لمجرد أنك كررته.

وليس في هذه الآيات دعوة إلى اليأس من المذنب، بل على العكس؛ فالسورة تصور نموذج الإعراض المكتمل حتى يعرف القارئ خطورة الطريق قبل أن يبلغ آخره. ما دام الإنسان في الدنيا فباب الرجوع مفتوح، وبين ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وبين التوبة مسافة يمكن أن تُقطع بصدقٍ واحد يغير الاتجاه كله. القرآن لا يذكر مصائر المكذبين ليقول للضعفاء: لا رجاء لكم، وإنما ليقول للغافلين: لا تأمنوا أن يتحول الضعف غير المعالج إلى تولٍّ، وأن يتحول التولي إلى كبر، وأن يصبح الكبر سيرةً تنتهي بصاحبها إلى الوعيد.

ولذلك فإن الصلاة التي افتتح بها هذا المقطع تحمل مفتاحًا مضادًا لكل ذلك؛ ففي السجود موتٌ صغير للكبر، وفي التكبير إعادةٌ لترتيب الأحجام، وفي الوقوف بين يدي الله تذكيرٌ متكرر بأنك لست مركز الكون، وفي التسليم آخر الصلاة خروجٌ من مقام العبودية إلى العالم وقد تذكرت من أنت. ومن حافظ على هذا المعنى، لا على الهيئة وحدها، وجد في الصلاة علاجًا يوميًا لمرض «يتمطى»؛ لأن الجبهة التي تهبط لله بإخلاص يصعب عليها أن تتعالى على عباد الله.

وكم تبدو العبارة ﴿ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ مؤلمةً حين نضعها إلى جوار الموت؛ لقد ذهب إلى أهله مراتٍ كثيرة في الدنيا، يدخل عليهم ويخرج، يأكل معهم وينام ويضحك، وربما ظن أن هذه الدورة ستستمر طويلًا، ثم جاء اليوم الذي ذهب فيه أهله معه إلى قبره ثم رجعوا وتركوه. هكذا تكشف السورة هشاشة الاستقرار الأرضي دون أن تنتقص من جمال الأسرة؛ الأهل نعمة عظيمة، لكنهم ليسوا المصير، والحب رحمة، لكنه لا يعفي من الحساب، والبيت سكن، لكنه ليس «المستقر» الذي قالت السورة إنه إلى الله. وأعدل العلاقات الإنسانية هي التي تعرف حدودها؛ نحب من حولنا عميقًا، ولكن لا نطلب منهم أن ينقذونا مما لا يملك إنسان أن ينقذ منه إنسانًا.

إن هذا الفصل كله يضعنا أمام سؤال شديد الوضوح: بأي هيئة نمشي من مجالس الحق إلى حياتنا؟ هل يغيرنا القرآن، أم ننهي التلاوة ثم نعود إلى طباعنا وكأن شيئًا لم يحدث؟ هل تؤدي الموعظة إلى محاسبة، أم تصبح عندنا مادةً جميلة للإعجاب؟ فالذي يسمع الآيات ثم يذهب إلى أهله «يتمطى» لم تكن مشكلته أنه لم يسمع، بل أن السماع توقف عند أذنه ولم يصل إلى موضع الانكسار في القلب.

وبهذا تتهيأ السورة للسؤال الأخير، السؤال الذي سيهدم أصل الوهم كله: ما الذي جعل الإنسان يظن أنه يمكن أن يعيش كما يشاء ثم يترك سدى؟ من أين جاءت هذه الفكرة أن وجودًا بهذه الدقة، ونفسًا بهذه المسؤولية، ووحيًا بهذا البيان، وموتًا بهذه الحتمية، ينتهي إلى عبث؟ ستعود السورة بالإنسان إلى أصغر بداية له، إلى النطفة التي لم يكن فيها شيء من غروره الحالي، لتريه أن الذي أنشأه أول مرة قادرٌ على أن يعيده، وأن الذي خلقه لم يخلقه عبثًا.

الفصل الثامن

من قطرةٍ لا تُرى إلى سؤال الخلود

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۝ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾

تصل سورة القيامة إلى خواتيمها فلا تختار أن تختم بصورة النار، ولا بصيحة الفزع، ولا بانهيار الشمس والقمر، وإنما تعود بالإنسان إلى نفسه الأولى؛ إلى تلك البذرة الخفية التي بدأ منها وجوده قبل أن يعرف اسمه أو مكانته أو جنسه أو لغته، قبل أن يحمل شهادةً أو مالًا، وقبل أن يكون له رأي يدافع عنه أو صورةٌ يحميها أو تاريخٌ يتكئ عليه. وكأن القرآن بعد أن طاف به في آخر الكون يعيده إلى أول الجسد، فيجمع البداية والنهاية في قبضة سؤال واحدة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ أيحسب هذا المخلوق الذي أُنشئ بهذه العناية، وأُعطي العقل والسمع والبصر، وأرسل الله إليه رسله، وأنزل عليه هديه، وأودع فيه القدرة على التمييز والاختيار، ثم أعطاه عمرًا تتحرك فيه إرادته بين الخير والشر، أنه في النهاية سيُترك بلا أمر ولا نهي ولا حساب ولا غاية؟

إن كلمة ﴿سُدًى﴾ وحدها تهدم فلسفة العبث بأسرها؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يجمع بسهولة بين إحساسه العميق بأن لحياته قيمة وبين القول بأنه وُجد بلا غاية. هو يثور إذا ظُلم لأن شيئًا في داخله يؤمن أن العدل ينبغي أن يكون، ويحزن إذا ضاع الخير لأن قلبه يتوقع أن يكون للخير وزن، ويطلب معنى لما يفعله لأنه لا يستطيع أن يعيش طويلًا بوصف نفسه حادثًا بلا مقصد. وحين ينكر الغاية الكبرى لا تنتهي حاجته إلى الغاية، بل يبدأ باختراع

غايات صغيرة يضعها مكانها: النجاح، الشهرة، الأسرة، المال، الوطن، الإنجاز، الذكر، وكلها قد تكون أشياء جليلة في مواضعها، لكنها تنهار إذا حُمّلت السؤال الذي لا تحتمله: لماذا وُجدت أصلًا، وإلى أين ينتهي هذا الوجود؟

إن أعظم أزمة روحية يمكن أن تصيب الإنسان ليست الألم، بل العبث؛ لأن الألم إذا كان له معنى يمكن احتماله، أما إذا رأى المرء أن وجوده كله لا يتجه إلى شيء، فإن حتى النعم نفسها تفقد مذاقها ببطء. ماذا يفعل المرء بإنجاز كبير إذا كان مصيره هو ومصير الإنجاز العدم المحض؟ وما معنى العدالة إذا كان القاتل والمقتول ينتهيان نهايةً لا فرق فيها؟ وما معنى الصبر إذا لم يكن وراءه ميزان؟ إن القيامة ليست فقط استجابةً لسؤال القدرة الإلهية، بل جزء من اتساق المعنى الأخلاقي للوجود؛ فالدار التي يجري فيها الظلم ولا يُستوفى فيها كل حق لا يمكن أن تكون هي المحكمة الأخيرة، ولا بد من يومٍ يُردّ فيه كل شيء إلى ميزانه.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ سؤال لا يطلب جوابًا لفظيًا بقدر ما يريد أن يهز غرور الاستقلال؛ فمن الذي أوهم الإنسان أن امتلاكه قدرةً على الاختيار يعني أنه بلا مالك؟ إن الحرية التي أُعطيت لك لا تلغي العبودية، بل تجعلها موضع امتحان؛ ولو لم تكن للإنسان إرادةٌ واختيارٌ معتبران في دائرة التكليف، لما ظهر معنى الابتلاء والمسؤولية، لكنك أُعطيت مساحةً تقول فيها نعم ولا، تتقدم وتتراجع، تصدق وتكذب، تصلّي وتتولى، وتبني داخل هذه المساحة شخصيتك الأخلاقية، ثم يأتي الحساب لا لينفي حريتك، بل ليكشف ماذا فعلت بها.

ثم يبدأ القرآن بتجريد الإنسان من أوهام عظمته المكتسبة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾. يا له من ردّ هادئ على كل تكبر؛ لم يبدأ وجودك صخرةً عظيمةً ولا نجمًا في السماء، بل نطفةً

من ماءٍ مهين، لا تكاد العين تراها على حقيقتها، ولا تحمل في شكلها شيئًا مما ستصير إليه. أين كان لسانك الذي تجادل به؟ أين وجهك الذي تزهو به؟ أين العقل الذي تعترض به؟ أين القوة التي تظن أنها لك؟ كلها كانت في علم الله، لم تكن شيئًا ظاهرًا منك، ثم ساق الخالق تلك البداية الدقيقة في طريقٍ من التقدير لا تملك أنت منه شيئًا.

وهذه العودة إلى النطفة ليست إهانةً للإنسان، بل إعادةٌ للكبر إلى حجمه؛ فالقرآن نفسه كرّم بني آدم، لكن التكريم شيء، وتأليه الذات شيء آخر. الإنسان كريم لأنه مخلوق لله وحامل أمانته ومخاطَب بوحيه، لا لأنه مستقل عنه. وحين يعرف أصله لا يحتقر نفسه، بل يعرف مصدر كرامته؛ لم تكن قيمتك في المادة التي بدأت منها، بل في الذي خلقك منها، وأجرى فيك الحياة، وأعطاك ما لم يكن في تلك النطفة من وعيٍ وإرادة وقدرة على المعرفة.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾؛ ينتقل الجنين من طور إلى طور تحت عنايةٍ لا يشعر بها، في ظلمة الرحم التي لا يعرف فيها أمه ولا يعرف العالم الذي ينتظره، ومع ذلك تُبنى أعضاؤه، ويتهيأ جسده، وتُرسم ملامحه، ويجري فيه من التقدير ما لو طُلب منه بعد أن يبلغ أن يصنع خليةً واحدة بمحض قدرته لعجز. كلمة ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ تختصر عوالم من الصنعة الإلهية؛ لم يخلق فحسب، بل سوّى، وأقام البنية على تناسب، وجعل العين في موضعها، والسمع في طريقه، والقلب في صدره، والأطراف فيما يلائم وظيفتها، ثم خرج الإنسان إلى الدنيا فألف نفسه حتى نسي دهشة أن يكون موجودًا أصلًا.

وهذه إحدى مشكلات الألفة: أنها تحجب المعجزة؛ لأنك تستيقظ كل يوم في الجسد نفسه، يصبح وجود اليد شيئًا عاديًا، والعين عادية، والذاكرة عادية، والقدرة على النطق عادية، بينما كل واحدة منها باب لو تدبره الإنسان لانكسر فيه وهم الاستقلال. إننا لا

نحتاج دائمًا إلى ظاهرة خارقة كي نؤمن بالقدرة، نحن نحمل الخارق في انتظامه داخلنا، لكن التكرار ستره عن الدهشة. والقرآن يعيد إلينا الدهشة بقوله: كنت نطفة، ثم علقة، ثم خلق فسوى، أي إنك أنت البرهان الذي تبحث عنه خارج نفسك.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾، من أصلٍ مادي متقارب يخرج هذا التنوع البشري، ذكر وأنثى، ثم تتسع من ذلك دوائر الأنساب والأسر والمجتمعات والتاريخ. ومن نطفة واحدة من حيث أصل الجنس ينشأ أبٌ يحمل ابنه، وأم تحتضن طفلها، وحبيب ينتظر حبيبه، وشعوب تتعارف، وأجيال تسلم الحياة إلى أجيال. إن الإنسان حين يرى نفسه في آخر السلسلة قد ينسى أن كل هذا العالم الإنساني الهائل خرج من بدايات لا تكاد تُرى، وأن القدرة التي أنشأت التنوع من ذلك الأصل ليست قدرةً تجريبية تحاول ثم تتعلم، بل قدرة الخالق الذي يقول للشيء فيكون.

ثم يأتي السؤال الأخير، والذي تبدو السورة كلها كأنها كانت تسير نحوه منذ أول آية: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾. لم يقل: أليس الله قادرًا فحسب، بل ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾، أي ذلك الذي فعل كل ما ذُكر، الذي أخذ النطفة في أطوارها، وخلق وسوّى، وجعل الزوجين، أليس من فعل ذلك بقادر على الإعادة؟ إن البرهان هنا لا يبدأ من نظرية تجريدية، بل من تاريخك أنت، قبل أن تسأل: كيف يحيي الله الموتى؟ انظر: كيف أحياك أول مرة؟ قبل أن تستبعد جمع عظامك، اسأل: من أنشأ العظام حين لم تكن؟ وقبل أن يتعاظم عليك البعث، تذكر أن الإعادة في ميزان قدرتك أنت قد تبدو عجيبة، أما في ميزان القدرة الإلهية فالأمر كله خاضع لمشيئة الله، ولا يعجزه شيء.

ولهذا ترتبط خاتمة السورة ببدايتها بأحد أجمل أوجه الإحكام؛ بدأت بـ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، وانتهت بـ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾. في البداية شبهة، وفي النهاية جواب؛ في البداية عظام متفرقة في خيال المنكر، وفي النهاية نطفة تتخلق أمام العقل؛ في البداية استبعاد الإعادة، وفي النهاية تذكير بالبداية. كأن السورة أخذت الإنسان في دورة كاملة ثم أعادته إلى السؤال الأول وقد نزعت منه عذره: إذا كنت قد رأيت آثار الخلق الأول في نفسك، فمن أين لك أن تستبعد الخلق الآخر؟

لكن القوة الكبرى في السؤال الأخير ليست عقلية فقط، بل وجدانية؛ لأن الإنسان حين يقول في قلبه: بلى، إن الله قادر على أن يحيي الموتى، فقد سلّم ضمنًا بكل ما يترتب على ذلك. إذا كان سيبعثني، فإن حياتي ليست صفحةً تمزق بالموت؛ وإذا كان سيحاسبني، فإن اختياراتي ليست أحداثًا بلا امتداد؛ وإذا كان سيعيد من مات، فإن المظلوم ليس ضائعًا، والحبيب الذي فارق ليس معدومًا، والعمل الصالح الذي لم ير الناس أثره ليس منسيًا، والدمعة التي أخفاها العبد عن البشر ليست ذاهبةً في الفراغ. الإيمان بالبعث يعيد إلى العالم أخلاقه ومعناه في اللحظة نفسها.

وكم من جراح لا تُفهم إلا في ضوء القيامة؛ طفل مات قبل أن يعرف الدنيا، مظلوم رحل قبل أن يرى حقه، محسن عاش مجهولًا ومات دون أن يسمع كلمة شكر، طاغية أكل الحقوق ثم مات في فراشه دون أن تلحقه محكمة الأرض؛ لو كانت القصة تنتهي عند القبور لظلت في الوجود أسئلة أخلاقية مفتوحة بلا جواب، لكن قوله: ﴿أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ يفتح أمام هذه الأسئلة أفق العدالة الكاملة. هناك يوم لا يسقط فيه حق بالتقادم، ولا يحتاج الله إلى وثيقة ضاعت، ولا إلى شاهد مات، ولا إلى ذاكرة خذلت صاحبها؛ علمه أحاط بكل شيء.

ومن هنا تصبح القيامة عزاءً للمؤمن بقدر ما هي إنذار؛ ليست نارًا فقط في مخيلة الخائفين، بل جبرٌ أيضًا، وردٌّ للمظالم، وانتهاءٌ للفقد، وظهورٌ لما خفي من طاعات، ووفاءٌ بوعد الله. ولولا هذا البعد لتحولت السورة في القراءة السطحية إلى مشاهد رعب متتابعة، بينما بنيتها أعمق من ذلك بكثير؛ إنها تهدم غفلة الإنسان لكي تبني يقينه، وتخيفه من الخسارة لكي تدله على النجاة، وتكشف الموت لكي تحرر الحياة من التفاهة.

لقد بدأت السورة بالقسم بيوم القيامة والنفس اللوامة، وكأنها أقامت أمامنا محكمتين: محكمةً في القلب تسبق الموت، ومحكمةً كبرى بعد البعث. ومن أعظم لطف الله أن جعل لنا الأولى قبل الثانية؛ تستطيع الآن أن تلوم نفسك وتصحح، وأن تبكي ثم تقوم، وأن ترد الحق، وأن تصلح الماضي بما أمكن، وأن تحول «ما قدمت» إلى توبة، و«ما أخرت» إلى أثر خير. أما إذا ماتت النفس اللوامة فيك حتى تأتي القيامة، فلن يكون الوعي هناك طريقًا للإصلاح، بل انكشافًا بعد انقضاء زمن الإصلاح.

وبين ﴿النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ في مطلع السورة و﴿أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ في آخرها خيط عميق: أنت تلوم نفسك لأنك لم تُخلق سدى؛ ذلك الإحساس الداخلي بالمسؤولية شاهد صغير على الغاية الكبرى. لماذا يخجل الصادق إذا كذب، حتى لو لم يره أحد؟ لماذا يختنق الإنسان أحيانًا بذكرى ظلم قديم بعد أن مات جميع شهوده؟ لماذا يكون الاعتراف مؤلمًا ومريحًا في الوقت نفسه؟ لأن في الإنسان بنيةً أخلاقية تشير إلى أنه ليس حيوانًا متقدمًا يبحث فقط عن المنفعة، بل مخلوقٌ يحمل أمانةً ويسير إلى حساب.

وبين ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ و﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ تتعرى حيلة أخرى؛ يريد أن يفجر أمامه لأنه يتمنى، في أعماق هواه، أن يكون متروكًا سدى، أن تكون

الحرية بلا مسؤولية، والمتعة بلا نتيجة، والعمر بلا سؤال. لكن القرآن يعيد الحرية إلى معناها النبيل: لأنك لست متروكًا سدى، فاختياراتك مهمة؛ ولأن حياتك لها غاية، فإن قرارك الأخلاقي له وزن أبدي. إن الحساب لا يصغر الإنسان، بل يؤكد خطورة وجوده؛ الأشياء التي لا قيمة لها لا تُحاسب، أما أن تُحاسب على الكلمة والنية والذرة فمعناه أن وجودك لم يكن تفصيلًا مهملًا في الكون.

وبين ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ و﴿أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ تتصحح علاقتنا بالزمن؛ العاجلة قصيرة لأنها ليست الدار النهائية، والموت ليس نهاية لأن الإحياء آتٍ، والآخرة ليست فكرةً لتقليل قيمة الدنيا، بل الحقيقة التي تمنع الدنيا من أن تتحول إلى صنم. فإذا عرفت أن الموتى سيحيون، استطعت أن تحب الحياة دون أن تتشبث بها تشبث اليائس، وأن تعمل فيها بكل قوة دون أن تجعلها معبودك، وأن تودع من تحب وقلبك مكسور لكن ليس خاليًا من الرجاء.

وعند هذا السؤال الأخير يشعر القارئ كأن السورة تتركه وحده أمام نفسه: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾. وليس ثمة جواب يليق بالقلب المؤمن إلا أن يقول: بلى، سبحانك، إنك على كل شيء قدير. لكن «بلى» الحقيقية ليست كلمةً تخرج من اللسان فقط؛ إنها حياة تتغير. من قال بلى ثم عاش كأن لا بعث، لم تدخل الإجابة إلى قراره بعد، أما الذي استقرت «بلى» في قلبه فإنه يبدأ في إعادة ترتيب كل شيء: يقلل خصوماته، يسرع إلى التوبة، يخاف حقوق الناس، يحفظ صلاته، يهون عليه بعض ما يفوته من الدنيا، ويتعلم أن يسأل نفسه عند مفارق الطرق لا ماذا أريد الآن، بل ماذا أريد أن أجد هناك.

إن سورة القيامة لا تنتهي عند آيتها الأربعين، إنها ينبغي أن تبدأ في الإنسان عندها. تنتهي التلاوة، لكن النفس اللوامة تستيقظ، ويسقط بعض سحر العاجلة، ويقترب معنى المساق، ويصبح الموت أقل غموضًا، والحياة أكثر مسؤولية، والوقت أثمن، والصلاة أعمق، والتوبة أعجل، والناس الذين ظلمناهم أثقل في ضمائرنا، والخير الذي نستطيع أن نفعله اليوم أكثر إلحاحًا؛ لأن السورة نجحت حين تجعل القيامة تنتقل من خبر في آخر الزمان إلى ميزان في هذا الصباح، وفي هذه الكلمة، وفي هذا القرار.

وهنا يكتمل البناء العجيب للسورة: قسمٌ بالقيامة، ونفسٌ تلوم، وعظامٌ تُجمع، وبنانٌ يُسوّى، وإنسانٌ يريد أن يفجر أمامه، وبصرٌ يبرق، وشمسٌ وقمرٌ يذهب نظامهما، ومفرٌّ يُبحث عنه فلا يوجد، وسيرةٌ تُعرض، ومعاذيرُ تسقط، ووحيٌ يتكفل الله بجمعه وبيانه، وعاجلةٌ تُحب، وآخرةٌ تُترك، ووجوهٌ تشرق وأخرى تبسر، وروحٌ تبلغ التراقي، وفراقٌ يحل، ومساقٌ إلى الرب، وتكذيبٌ وصلاةٌ ضائعة، وكبرٌ يتمطى، ثم نطفةٌ وعلقةٌ وخلقٌ وتسوية، ثم سؤال القدرة الأخير، وكأن الله تعالى أحاط الإنسان من أول وجوده إلى آخر مصيره، فلم يترك له ثغرةً يفر منها: أنت مخلوق، وأنت مسؤول، وأنت ميت، وأنت مبعوث، وأنت راجع إلى ربك.

ولذلك فإن أعظم ما تقوله سورة القيامة لنا ليس: ستموتون، فهذه حقيقة يعرفها كل أحد، بل: لا تعيشوا كما لو أنكم لن تعودوا. لا تجعلوا الحياة الطويلة في ظنكم حجابًا عن قصرها، ولا تجعلوا تأخر الحساب وهمًا بإلغائه، ولا تجعلوا ستر الله لكم اليوم دليلًا على أن الصحائف خالية، ولا تجعلوا إمكان التوبة غدًا عذرًا لرفضها اليوم؛ فكل «أمام» للإنسان ينتهي عند التراقي، وكل مفر ينتهي عند المستقر، وكل عذر ينتهي عند البصيرة، وكل جسد ينتهي عند من خلقه أول مرة ثم يعيده.

وتبقى آخر آية كأنها لا تزال معلقةً فوق القلب بعد إغلاق المصحف: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾، وكلما قال المؤمن: بلى، ينبغي أن يسمع في أعماقه سؤالًا آخر غير منطوق: فإذا كنت تؤمن أنه سيحييك، فكيف تريد أن يلقاك؟

هناك يبدأ التدبر الحقيقي.

حين تنتهي الأعذار ويبدأ اللقاء

حين تُطوى سورة القيامة بعد آخر آية منها، لا يشعر القارئ أنه خرج من مشهدٍ أخروي بعيد، بل كأنه خرج من مواجهةٍ طويلة مع نفسه؛ فقد بدأت السورة بيومٍ سيقوم فيه الناس لرب العالمين، لكنها لم تسمح للإنسان أن يكتفي بالنظر إلى ذلك اليوم من خارج ذاته، وإنما أعادته مرةً بعد مرة إلى داخله، إلى النفس التي تلوم، وإلى الرغبة التي تريد أن تفجر أمامها، وإلى البصيرة التي تعرف ولو ازدحمت المعاذير، وإلى الحب الذي يتجه نحو العاجلة، وإلى الجسد الذي سيبلغ يومًا التراقي، وإلى التاريخ الشخصي الذي سيعود في صورة خبرٍ لا يستطيع صاحبه تعديله، حتى تتكشف الحقيقة الكبرى: إن القيامة ليست فقط اليوم الذي يتغير فيه نظام الكون، بل اليوم الذي يستحيل فيه على الإنسان أن يظل مختبئًا وراء الصورة التي صنعها لنفسه.

ولعل أعظم ما تفعله هذه السورة في القلب أنها تنزع عنه وهمًا عميقًا يكاد يلازم الإنسان منذ يبدأ وعيه بالدنيا: وهم أن أمامه دائمًا وقتًا آخر، غدٌ آخر يصلح فيه ما أفسد، وعمرٌ آخر يتدارك فيه ما أهمل، وفرصةٌ أخرى يرد فيها الحق، ويصل فيها الرحم، ويعتذر فيها ممن جرحه، ويقيم فيها الصلاة كما ينبغي، ويعود فيها إلى الله كما كان يتمنى. ثم تمضي السورة حتى تبلغ بالروح التراقي، فإذا ذلك «الأمام» الذي أراد الإنسان أن يفجر فيه قد انتهى، وإذا المستقبل الذي عاملَه كأنه ملكه قد أُغلق، وإذا الكلمات التي طالما استعملها لتأجيل الحقيقة ـ سأفعل، سأعود، سأصلح، سأبدأ ـ قد فقدت معناها دفعةً واحدة. وهنا يتبين أن أخطر

ما يضيعه الإنسان ليس المال ولا المكانة ولا الفرصة الاجتماعية، بل الزمن الذي كان يمكن أن يعود فيه إلى نفسه وإلى ربه ثم تركه يمضي وهو يظن أن في الطريق متسعًا لا ينفد.

وسورة القيامة، وهي تهدم هذا الوهم، لا تدفع المؤمن إلى رعبٍ عقيم، ولا إلى نظرة قاتمة للحياة، وإنما تعيد للحياة وزنها الحقيقي؛ لأن الشيء المحدود هو الذي ينبغي أن يُحسن استعماله، والوقت الذي سينتهي هو الذي يستحق أن يُصان، والعمر الذي لا يُعاد هو الذي ينبغي أن لا يُنفق في التوافه. إن الذي يوقن بالموت لا ينبغي أن يكره الحياة، بل أن يتعلم كيف يحبها دون أن يعبدها، وكيف يعمرها دون أن يتوهم أنها مستقره الأخير، وكيف يفرح بنعمها دون أن ينسى واهبها، وكيف يحزن على ما يفوته منها دون أن يشعر أن الوجود كله قد فاته؛ فالعاجلة حين توضع في موضعها تصبح نعمة، وحين تحتل موضع الآخرة تتحول إلى حجاب.

ومن أعمق مفارقات السورة أن الإنسان الذي يحث يوم القيامة عن المفر كان في الدنيا يستطيع أن يفر، لكن ليس من الله بل إليه؛ كان يستطيع أن يفر من الذنب إلى التوبة، ومن القسوة إلى الخشوع، ومن الظلم إلى رد المظالم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن التكبر إلى السجود، ومن العاجلة إلى الآخرة، لكنه حين يأتي اليوم الذي يقول فيه: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ يكون زمن الاختيار قد انقضى، فلا ملجأ إلا إلى حكم الله، ولا طريق يعاد فتحه، ولا عمر يرجع إلى بدايته. ومن هنا يبدو قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ ليس مجرد خبر عن الآخرة، بل دعوةً مبكرة إلى تصحيح الاتجاه في الدنيا؛ فما دام المستقر إليه، فلماذا لا يكون السير إليه؟ وما دام المساق إليه، فلماذا لا يكون القلب معه قبل أن يُساق الجسد؟

لقد أقامت السورة في داخل الإنسان شاهدًا قبل أن تحدثه عن الشهود الذين سيواجههم في الآخرة، ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾، وهذه من أكثر الآيات قدرةً على إسقاط الأقنعة التي نعيش بها. فما أكثر ما نحتاجه من الآخرين لكي يؤكدوا لنا صورةً نحبها عن أنفسنا، وما أقل ما نحتاجه من الصمت لكي نكتشف أن في الداخل شيئًا آخر، نعرف أحيانًا أننا لم نكن مخلصين كما ادعينا، وأن غضبنا لم يكن كله للحق، وأن نصيحتنا شابها شيء من الاستعلاء، وأن صمتنا لم يكن حكمةً دائمًا، وأن انصرافنا لم يكن زهدًا، وأن بعض ما سميناه كرامةً كان خوفًا من الاعتذار. تستطيع النفس أن تصنع مرافعات طويلة، لكنها لا تستطيع أن تغير الحقيقة لمجرد أنها أحسنت التعبير عنها، ولهذا كان سقوط المعاذير نعمةً في الدنيا قبل أن يكون فضيحةً في الآخرة؛ فمن اعترف اليوم استطاع أن يتغير، ومن أصرّ على تبرئة نفسه ربما حمل خطأه معه حتى الموطن الذي لا تنفع فيه المرافعات.

والنفس اللوامة التي أقسم الله بها في أول السورة ليست عدوًا ينبغي إسكاتها، بل قد تكون من أرحم النوافذ التي أبقاها الله مفتوحةً في الداخل؛ لأنها تقول للإنسان إن القلب لم يمت بعد، وإن الألم الذي يشعر به بعد الزلة يمكن أن يكون طريقًا إلى النور إذا لم يحوله إلى يأس أو إلى كراهية للذات. ليست النجاة في أن يعيش الإنسان بلا خطأ، فهذا ليس شأن البشر، وإنما في أن لا يجعل خطأه عقيدةً يدافع عنها، ولا عادةً يستأنس بها، ولا هويةً يرفض مغادرتها؛ فبين الذنب والتوبة قد تكون دمعة واحدة صادقة، وبين البعد والقرب قرار واحد لا يعلم أحد مقدار ما يغيره في المصير.

ثم تأتي السورة إلى أصل الداء في عبارة قصيرة تهزّ بنيان الإنسان كله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، وكأن القضية التي وراء كثير من الانحرافات ليست غياب المعرفة، بل سوء ترتيب المحبة؛ فالإنسان لا يسقط دائمًا لأنه لم يعرف الحق، بل لأنه أحب

شيئًا آخر أكثر. يحب أن ينتصر الآن ولو خسر عدله، ويحب أن يربح الآن ولو خسر أمانته، ويحب أن يشفى جرح كبريائه الآن ولو قطع رحمًا، ويحب أن يملك الآن ولو دخل الحرام إلى يده، ثم يخبر نفسه أن الآخرة ما تزال بعيدة. وهنا تعلمنا السورة أن الإيمان الحقيقي ليس أن نضيف الآخرة إلى قائمة معتقداتنا، بل أن نمنحها حقها في ترتيب قراراتنا، وأن يصبح البعيد الأبدي أثقل في الميزان من القريب الفاني.

ومن أبلغ ما في السورة أنها لا تكتفي بتخويفنا من خسارة الآخرة، بل تفتح أمامنا صورتها المضيئة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ كأنها تقول إن الطريق إلى الله ليس طريق رعب فقط، بل طريق شوق أيضًا. هناك وجوه أنهكتها مجاهدة النفس في الدنيا ثم أشرق فيها الجزاء، وقلوب صدقت الغيب حتى انتهت إلى الكرامة، وعبادٌ سجدوا لربهم وهم لا يرونه في الدنيا فيكرمهم سبحانه بما شاء من رؤيته في الآخرة على الوجه اللائق بجلاله، من غير تكييف ولا تمثيل ولا إحاطة. وحين يستقر هذا المعنى في النفس، تتحول الطاعة من عبء ثقيل إلى سفر نحو لقاء، ويصبح الصبر على الشهوة القريبة تنازلًا يسيرًا أمام نعيم لا ينقطع، ويصبح فوات شيء من الدنيا أهون حين يعلم القلب أن أعظم العطاء لم يبدأ بعد.

ثم تأخذ السورة الإنسان إلى التراقي كي تسلب منه آخر أوهام السيطرة؛ فذلك الذي أمضى عمره يحرك جسده كيف يشاء، يأمر ساقيه فتمشيان، ويده فتمتد، ولسانه فيتكلم، يأتي عليه وقت يبلغ فيه العجز موضعًا لا يملك معه أن يؤخر الروح لحظة. عندها يتعلم من لم يتعلم من قبل أن الجسد لم يكن ملكًا مطلقًا له، وأن العمر كان أمانةً لا ملكية، وأن الصحة عارية تُسترد، وأن القوة موسم، وأن كل ما في الإنسان محكوم بأجل كتبه الله. وما أقسى أن يعرف المرء هذه الحقيقة حين ينتهي وقت الانتفاع بها، وما أرحم أن يعرفها وهو ما يزال

قادرًا أن يصلي ركعتين، أو يفتح باب توبة، أو يصل من قطعه، أو يمسح دمعةً تسبب فيها، أو يكتب في صحيفته سطرًا آخر غير الذي كان يكتبه.

ولم تترك السورة الإنسان عند الموت، بل أعادته إلى بدايته: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾، وفي هذا الرجوع من نهاية الرحلة إلى بدايتها كسرٌ لكل غرور، فمن كان أول أمره قطرةً لا تملك لنفسها شيئًا، ثم خلقه الله وسواه ومنحه ما لم يكن يملك، كيف يتوهم أن إعادة جسده بعد الموت مستحيلة؟ وكيف يتكبر على الخالق وهو لا يملك تفسير وجوده خارج إرادة الخالق؟ إن البرهان الأخير على البعث ليس بعيدًا في السماء، بل يسكن جسد الإنسان نفسه؛ وجودك الحالي هو شهادة خلقك الأول، وخلقك الأول حجة على إمكان إعادتك، ومن أنشأ البداية لا تعجزه النهاية.

وهنا نفهم سر السؤال العظيم الذي ختمت به السورة: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾؛ ليس سؤالًا يحتاج المؤمن إلى بحث طويل ليجيبه، بل سؤال يريد أن يوقظ كل ما مر في السورة دفعة واحدة، وأن يجعل القلب يقول: بلى. لكن «بلى» هذه لا يليق بها أن تبقى حركةً في اللسان؛ إن كانت حقيقةً في القلب فلا بد أن تترك آثارها في الحياة، لأن من صدق أنه سيُبعث ينبغي أن يختلف عن من يعيش كأنه سينتهي إلى عدم، ومن أيقن أن الله سيجمع عظامه ينبغي أن يحذر ما تعمل جوارحه، ومن آمن أن المستقر إلى ربه ينبغي أن يسأل نفسه كل يوم: هل تقربني اختياراتي من ذلك المستقر أم تبعدني عنه؟

وهكذا يتضح أن سورة القيامة لم تكن تريد منذ أولها أن تخبرنا فقط بما سيحدث عندما ينتهي العالم، بل كانت تريد أن تمنعنا من أن ننتهي نحن قبل أن نستيقظ؛ أن لا تموت فينا النفس اللوامة قبل موت الجسد، وأن لا تتحول العاجلة إلى سقف رؤيتنا، وأن لا نستهلك

أعمارنا في بناء أعذار ستسقط، ولا في زخرفة صور ستزول، ولا في خصومات لا تستحق ما أخذته من قلوبنا. إنها سورة تسترد الإنسان من التفاصيل التي ابتلعته، وتضعه أمام الأسئلة التي لا ينبغي أن يغادر الدنيا قبل أن يجيب عنها: من أنا؟ لمن هذا العمر؟ ماذا قدّمت؟ ماذا أخّرت؟ ماذا أحب؟ ممَّ أهرب؟ وإلى أين أنا سائر؟

ولعل أجمل ما يمكن أن نخرج به منها هو أن نفهم أن القيامة رحمةٌ قبل أن تكون رعبًا؛ رحمة بالمظلوم الذي لم يأخذ حقه، وبالمحسن الذي لم يعرفه الناس، وبالحزين الذي ظن أن دموعه ضاعت، وبالمؤمن الذي ترك شهوةً لله ولم يصفق له أحد، وبكل خيرٍ خفي لم يجد مكانه في ميزان الأرض. لو لم تكن هناك قيامة لبقي كثير من الحق ناقصًا في أعيننا، لكن الله الذي لا يظلم مثقال ذرة جعل للكون يومًا تعود فيه الأشياء إلى أسمائها الصحيحة، ويعرف الناس حقيقة ما عاشوه، ويجد كل إنسان ما قدّم حاضرًا.

ولهذا لا ينبغي أن يخرج القارئ من السورة خائفًا من الموت وحده، بل خائفًا من حياةٍ لا تستعد له، ولا من الحساب وحده، بل من قلبٍ يعيش كأن لا حساب، ولا من الفراق وحده، بل من أن يأتي الفراق وبين يديه أشياء كان يستطيع إصلاحها ثم سوّف، ولا من القيامة وحدها، بل من أن يظل نائمًا حتى تقوم.

إن بيننا وبين تلك اللحظة التي تبلغ فيها الروح التراقي شيئًا واحدًا لا نعرف مقداره: العمر الباقي، وهذا وحده كافٍ لأن يكون ما بقي أثمن مما مضى؛ فما زال بإمكان الإنسان أن يكتب صفحةً أخرى، وأن يجعل آخر الطريق غير أوله، وأن لا يكون أسير تاريخه، وأن يهزم ألف خطأ بتوبةٍ صادقة، وأن يحوّل النفس اللوامة من صوت ألم إلى باب نجاة. الله الذي

أخبرنا بالقيامة لم يخبرنا بها ليغلق الطريق، بل أخبرنا بها والطريق ما يزال مفتوحًا، وهذه في ذاتها رحمة هائلة: أن تعرف النهاية قبل أن تصل إليها.

فإذا أغلقت هذا الكتاب، فلا تسأل فقط: ماذا فهمت من سورة القيامة؟ بل اسأل السؤال الذي أرادت السورة أن توقظه فيك: ماذا سأفعل بما فهمت؟ لأن الفرق بين قارئ يمر بالقرآن وقارئ يمر القرآن بقلبه أن الأول يضيف معلومات، أما الثاني فقد تتغير به وجهة حياة.

وإذا عاد صوت الآية الأخيرة بعد ذلك في قلبك: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾، فقلها هذه المرة بكل وجودك، لا بلسانك وحده:

بلى.

ثم عِشْ كما يليق بمن عرف أنه سيقوم.